

مركز إحسان لدراسات السنة النبوية

تعظيم النص الشرعي

مكانته ومعالمه

د. حسن بن عبد الحميد بخاري

٤

تعظيم النص الشرعي

مكانته ومعالمه

ح مركز إحسان ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بخاري، حسن عبد الحميد عبد الحكيم

تعظيم النص الشرعي: مكانته ومعالمه. / حسن عبد الحميد عبد الحكيم بخاري .- جدة، ١٤٣٨هـ

١١١ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩ - ٢ - ٩٠٨٨٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الفقه الإسلامي أ. العنوان

ديوي ٢٥٠,٩ ١٤٣٨/٣٢٠٦

الطَّبعةُ الأولى

١٤٣٨هـ/٢٠١٧م





مركز إحسان للدراسات السنية النبوية

Ihsan Center for Prophetic Sunnah Studies

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة - جدة

هاتف : ٠٠٩٦٦١٢٦١١٤٢٢١١

فاكس : ٠٠٩٦٦١٢٦١١٤٢٢٦٦

واتس آب : ٠٠٩٦٦٥٦١١٤١١١٣

البريد الإلكتروني : info@ihsancenter.com

الموقع الإلكتروني : www.ihsancenter.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، أوحى إلى عبده الوحي وعظّمه، وأتمّ لنا الدين وأكمله، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، حمل همّ هذا الدين وبلّغه، وحَمى حِمى الشريعة وعظّمه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فإنّ النصّ الشرعي منطلق الشريعة، ومدار التكليف، ودستور الملّة، والعناية به مطلب شرعي وسيلةً ومقصدًا، وتعظيمه أحدُ المنطلقات الأساس لفهمه والعمل به، ولم يزل هذا الباب في الشريعة موصدًا دون عبث العابثين وانتحال المبطلين، ولم يزل أهل العلم قيامًا على حجابته يحمون حِمى الدين ويذبّون عن حياضه، وكلما تطاول الأراذل على أسوار الشريعة وتسلّق الأصاغر على جدرانها تأكّد انتصاب أهل العلم لكفّهم وردعهم، وتطهير الساحة من سفاهتهم؛ تعظيمًا للوحي

وحفاظًا على هيبته وجلاله ووقاره في صدور العباد، فكان هذا البحث[1] مساهمة في البناء العلمي لصرح هذا الأصل الشرعي العظيم، وتأصيلًا لقضية تعظيم النصوص الشرعية، وهو ذو شطرين:

أحدهما: مكانة تعظيم النص الشرعي في الشريعة، وموضعه من كلياتها ومقاصدها العظام.

والآخر: معالم هذا التعظيم التي تحققه، وأمثلة ذلك وتطبيقاته لدى سلف الأمّة الكرام.

فالأول منهما تأصيلي، يكشف قواعد هذا الأصل الشرعي وأصوله الراسخة التي عليها تقوم دعائمه؛ لبيان عظيم مكانته، وأنه واسطة العقد في كليات الشريعة ودرّة تاجها؛ فإنه من دواعي التعظيم لأمرٍ ما: معرفة عظيم مكانته وجلالة قدره، وكلما عظُم وزن الأمر في ميزان الشريعة عظُم واجب القيام به تبعًا لذلك.

والآخر منهما تطبيقي، يُظهر صفحة من تاريخ سلف الأمة المشرق في القيام بهذا التعظيم العظيم للشريعة الغرّاء

(١) أصل هذا البحث ورقة أُلقيت في مؤتمر (النص الشرعي بين الأصالة والمعاصرة)، المنعقد في الأردن ـ عمّان، في الفترة من ٢٨ ـ ٣٠/ ٤/ ٢٠١٢م، ونظّمته الجمعية الأردنية للثقافة المجتمعية؛ إدراكًا لجلالة الموضوع وأهمية العناية به، ثم عُدتُ إليه مؤخّرًا بإضافات وإلحاقات، حتى بلغت نحوًا من ضعف أصله.

ونصوصها المقدّسة، باعتبارهم أعظم مَن رفع راية التعظيم لنصوص الشريعة ونافح عنها، ورفع أسوارها الحصينة، مما يقرّب الصورة ويعين على التماس التعظيم المنشود لنصوص الشريعة، فإن المعاني العظام إذا ضُربت لها الشواهد وسيقت لها الأمثلة أمكن استيعابها وتحديد معالمها، ثم احتذاؤها والسير على منهاجها.

خطة البحث:

يتكوّن البحث من فصلين وخاتمة:

الفصل الأول: مكانة تعظيم النصّ الشرعي؛ وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تحقيق مقصد الشريعة من التنزيل.

المبحث الثاني: تحقيق مقصد الشريعة من التكليف.

المبحث الثالث: تحقيق تعظيم الله ﷻ.

المبحث الرابع: تحقيق تعظيم حرمات الله تعالى.

المبحث الخامس: تحقيق تعظيم شعائر الله تعالى.

الفصل الثاني: معالم تعظيم النصّ الشرعي؛ وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: حفظ النص الشرعي.

المبحث الثاني: توقير النص الشرعي.

المبحث الثالث: نصرة النص الشرعي.

المبحث الرابع: فهم النص الشرعي.

المبحث الخامس: خدمة النص الشرعي.

الخاتمة؛ وفيها خلاصة البحث.

ورغم عَظَمة الموضوع وثِقل وزنه في الشريعة أصولها ومقاصدها، إلا أني أحسب هذه الوريقات أسورة أحاطت بالمعصم، وفيها من إيضاح الفكرة وشدّ أزرها بالنقول والشواهد ما يفي بالغرض، عسى أن تكون سهمًا أرمي به في هذا الباب الجليل، ولبِنةً ترفع بناء هذا الصرح الشامخ.

سائلًا ربي العون والتوفيق، والهداية والتسديد، وصلى الله وسلّم وبارك على نبيِّه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، والحمد لله ربِّ العالمين.



الفصل الأول

مكانة تعظيم النصّ الشرعي

المبحث الأول: تحقيق مقصد الشريعة من التنزيل.

المبحث الثاني: تحقيق مقصد الشريعة من التكليف.

المبحث الثالث: تحقيق تعظيم الله ﷻ.

المبحث الرابع: تحقيق تعـظيم حرمات الله تعالى.

المبحث الخامس: تحقيق تعظيم شعائر الله تعالى.

مكانة تعظيم النصّ الشرعي

حظي النصّ الشرعي بتعظيم جليل في شريعة الإسلام، تبوّأ به مكانةً رفيعةَ القدر عظيمةَ الشأن، وما ذاك إلا لأنّ تعظيم النصّ الشرعي خطوة أولى ومدخل مهمّ في طريق العمل به والرضا بأحكامه والانقياد له، وتلكم حقيقة الإسلام: الاستسلام التام والانقياد الخالص والطواعية الراضية، فتعظيم النص عتبة العبودية الصادقة، ومدخلها الأول!!

وبالتأمّل بدا لي أن مكانة تعظيم النص الشرعي مرتبطة في الشريعة الإسلامية بمقصدين وثلاثة مطالب، تتضافر كلها ويؤازر بعضها بعضًا في تقرير تعظيم نصوص الشريعة، أما المقصدان: فمقصد الشريعة من التنزيل، ومقصد الشريعة من التكليف، وكلاهما متحقق بتعظيم النص الشرعي.

وأما المطالب الثلاثة: فتعظيم الله ﷻ، وتعظيم حرمات الله ﷻ، وتعظيم شعائر الله تعالى، والأول منها أصل للآخرين، وثلاثتها متحققة بجملة من المسالك، على رأسها: تعظيم النص الشرعي.

ولذلك جعلت مباحث هذا الفصل خمسة، يتناول كل واحد منها أحد تلك الجوانب الخمسة، أبيّن من خلالها مكانة تعظيم النص الشرعي.

المبحث الأول

تحقيق مقصد الشريعة من التنزيل

«من مقاصد الشريعة من التشريع: أن يكون نافذًا في الأمّة، وأن يكون محترمًا من جميعها؛ إذ لا تحصل المنفعة المقصودة منه كاملةً بدون نفوذه واحترامه، فطاعةُ الأمّةِ الشريعةَ غرضٌ عظيمٌ، وإنّ أعظمَ باعثٍ على احترام الشريعة ونفوذها أنها خطاب الله تعالى للأمّة!

فامتثال الأمّة للشريعة أمرٌ اعتقاديٌّ تنساق إليه نفوس المسلمين عن طواعية واختيار؛ لأنها ترضي بذلك ربّها، وتستجلب به رحمته إياها وفوزها في الدنيا والآخرة»[(١)].

هذا المقصد الجليل الذي أفصح عنه العلامة ابن عاشور يتلخّص في أن تعظيم النص الشرعي (وهو الوحي كتابًا وسُنَّة) مقصد من مقاصد التشريع، تحقيقًا لنفوذه والانقياد له؛ لكون التعظيم أعظم بواعثه ودوافعه.

وقد عظّم الله تنزيله أيّما تعظيم فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٦].

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، للطاهر بن عاشور (ص٢٧٧).

بل وقع تعظيم القرآن في القرآن في مواضع كثيرة وعلى أنحاء متعددة، تجتمع كلها في زرع تعظيم الوحي في قلوب العباد، ومن ذلكم:

١ ـ القَسَمُ بالقرآن: قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ٢، والدخان: ٢]، ومعلومٌ أن إقسام الله تعالى بشيء تعظيمٌ له، وتنويهٌ برفعة قدره وعظيم شأنه.

٢ ـ القَسَمُ على تعظيم القرآن: مثل قوله سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤]؛ أي: أن هذا القرآن في الملأ الأعلى في أعلى الرُتَب وأفضلها، عليٌّ في قدره وشرفه ومحلّه[1].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧]، ورغم كثرة مواضع القسم وتعددها في القرآن الكريم، إلا أنه لم يصف الله ﷻ قَسَمًا بالعَظَمة سوى هذا الموضع؛ لعظمة المقسم عليه، وهو تعظيم القرآن الكريم!!

٣ ـ وصفُ القرآن بأوصاف التعظيم والإجلال والمهابة، مثل وصف (الكريم)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمٰن (ص٨٩٨).

[الواقعة: ٧٧]؛ «أي: كثير الخير غزير العلم، فكل خير وعلم فإنما يُستفاد من كتاب الله»[١]، وقال ابن كثير: «أي: إن هذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ لعظيم!»[٢].

وكذلك وصف (المجيد)؛ أي: رفيع القدر، وقيل: الكريم[٣]، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١]، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ [البروج: ٢١]؛ أي: ذو المجد والشرف العظيم[٤]، قال السعديُّ: «يُقسِم تعالى بالقرآن المجيد؛ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرّات، والمجدُ: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحقُّ كلام يوصف بهذا: هذا القرآن، الذي حَوَى من الفصاحة أكملَها، ومن الألفاظ أجزلَها، ومن المعاني أعمَّها وأحسنَها، وهذا موجِب كمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشُكر الله على المنّة به!»[٥].

وصريح هذا التعظيم والإجلال للقرآن في القرآن جاء في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، فهذا تشريف للقرآن وتعظيم لمكانته وقدره العظيم من جهتين: القَسَم به، ووصفِه بـ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أي والقرآن ذي الشرف والشأن العظيم

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٩٨٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢١٧).
(٤) انظر: التفسير الميسّر (ص٥١٨).
(٥) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٩٤٧).

والمكانة، كما ثبت عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما وعدد من مفسري السلف(١).

وفي القول الآخر المحكي عن الضحاك وقتادة أن المراد: والقرآن المشتمل على ما فيه ذِكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد(٢)، قال ابن كثير: «ولا منافاة بين القولين؛ فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار»(٣).

وكذلك القول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، معناه: وإنه لَشرفٌ لك ولقومك! ذكره الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيرِه، ولم يحكِ سواه(٤).

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فيه شرَفُكم، وقال غيره: حديثكم، أو: دينكم(٥).

٤ ـ إضافته سبحانه تنزيل القرآن إليه عز وجل: كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ٢]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١، الجاثية:

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٨٤).
(٢) ورجحه الإمام الطبري رحمه الله، المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٠٦).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١١٩).
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٠٧).

٢، الأحقاف: ٢]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، بل وتكفّله سبحانه بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وفي ذلك غاية التعظيم والإجلال.

وفي سياق هذا التعظيم تندرج كل الأوصاف الجليلة التي وُصف بها القرآن في القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١].

فالروح والنور والهدى والموعظة والشفاء والرحمة والعجب وغيرها كثيرٌ كثيرٌ، كلها أوصاف للقرآن سيقت مساق تعظيمه ليقع موقعه في قلوب العباد.

فضلًا عن وصف القرآن بالبركة ـ وهي تعظيم خيره ونفعه ـ في مثل قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وهو وصف يحمل معنى التعظيم لكتاب الله، لما يحويه من عظمة الخير والنفع والأجر، ولذلك

كان التعقيب بعد هذا الوصف في تلك المواضع بما يستلزمه هذا التعظيم من الإيمان والتصديق والاتباع والتدبر.

وكذلك جاء تعظيم السُّنَّة في كتاب الله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٢-٤]، ومنه الأمر بأخذ جميع ما يأتي من قِبل رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فضلًا عن جملة وافرة من أحاديث السُّنَّة الصحيحة والصريحة في تعظيم الوحي وإجلاله وتوقيره.

وقد بلغ الوصف غايته في تعظيم كتاب الله في آيتين، إحداهما قوله عزّ اسمه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر: ٢١]، والأخرى قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١]؛ أي: لكان هذا القرآن![١].

وجاء تعظيم القرآن في القرآن على نحوٍ آخر، فيه ذمٌّ شديد ووعيدٌ أكيد وتحقيرٌ مهين لمن انتقص قدر القرآن واستخفّ به ورفع عنه حجاب العظمة والإجلال، كما فعل الوليد بن مغيرة، فقال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٥).

﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٣٠][1].

إنه التعظيم العظيم للوحي (النص الشرعي)، والمقصد الشرعي الجليل من التنزيل، المتقرّر جليًا في كتاب الله الكريم!

وإنما عظُم شأن هذا المقصد لِما يورثه من صدق الإيمان وتمام الاستسلام وحسن العمل للنص الشرعي كتابًا وسُنَّةً، وهي معانٍ منصوصة أيضًا في كتاب الله، في مثل قوله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

فكل ما يحقق تعظيم النص الشرعي مقصود من تنزيله، وأول ذلك الإيمان به واعتقاد عصمته وكماله وإحكامه، ونسبته إلى الحكيم الخبير، العليم العظيم ذي الجلال والإكرام، مرورًا بكل صور التعظيم الآتي ذكرها، من العمل به والتحاكم إليه وتقديمه، وبناء الحياة كلها وفق أحكامه ومقتضاه.

وكل ما ينافي تعظيم النص الشرعي مناقض لمقصد

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٢).

الشريعة من التنزيل، الذي تواترت النصوص الشرعية على تقريره وإثباته، ولذلك صور متعددة، منها:

١ ـ الإلحاد في كتاب الله، وإنكار قرآنيته، ودعوى أنه مخلوق، أو صنعةٌ محمّدية، كما زعم الأفّاكون قديمًا وحديثًا.

٢ ـ حجب السُّنَّة النبوية عن الاحتجاج بها، بدعوى الاكتفاء بالقرآن والاستغناء به عن غيره.

٣ ـ تقديم العقل ومحاكمة النّص الشرعي إليه.

٤ ـ التأويل الفاسد للنصوص الشرعية، وليّ أعناقها؛ لموافقة الأهواء.

٥ ـ التقعيد الباطل لما يحجّم النص الشرعي ويقدّم غيره عليه، كتقديم المصلحة على النص عند التعارض، أو القياس على خبر الآحاد الصحيح.

٦ ـ العصبية الذميمة لأقاويل الأئمة على حساب النصوص الشرعية.

وما هذا إلا مثال على مناقضة مقصود الشريعة من التنزيل، وكل ما جرى مجراه في هذا المعنى الآثم التحق به وأخذ حكمه.



المبحث الثاني

تحقيق مقصد الشريعة من التكليف

«المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلّف عن داعيةِ هَواهُ، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبدٌ لله اضطرارًا»(١).

وهذا المقصد الذي أفصح عنه الإمام الشاطبي يستلزم عدّة لوازم، تقوم كلها على تعظيم النص الشرعي:

فمجانبة الهوى، ومخالفة النفس الأمّارة بالسوء، وامتثال الأمر والنهي الشرعيّين، وعدم التقديم بين يدي الله ورسوله، واحتمال المشاقّ في التكليف، وإيثار مرضاة الله، والتجافي عن موارد سخطه، وملء القلوب حبًّا صادقًا لله تعالى وخوفًا جليلًا منه ورجاءً حسنًا في كرمه سبحانه، ونحو ذلك من المعاني المحقّقة لحقيقة العبودية لله ربِّ العالمين: إنما تقوم على ساق التعظيم للنصّ الشرعي.

فتجلّى حينئذ أنّ تعظيم النصّ الشرعي تحقيق لمقصد امتثال المكلّف لشريعة الله، وخروجه عن دواعي الهوى.

---

(١) الموافقات (٢/ ٤٦٩).

وصريح ذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فحيث كان الأمر الذي قضاه الله ورسوله ﷺ وجب أن يكون محلّ تقديم يوجبه التعظيم للوحي، بحيث يتلاشى معه كل اختيار للنفس أو ميلٍ للهوى، وإلا كان عصيانًا لله ورسوله ﷺ يستلزم ضلالًا مبينًا يهوي به العبد في درك الشقاء، والعياذ بالله!!

وفي قصّة صلح الحديبية درس بليغ للأمة، حين اصطلح النبي ﷺ وقريشًا على شروطٍ امتعضت لها نفوس بعض الصحابة ﷺ، فلما أمرهم النبي ﷺ بالتحلّل من إحرامهم ثلاث مرات وجد منهم تردّدًا وشيئًا من التأخّر، فشقّ عليه ﷺ، حتى أشارت عليه أم سلمة ﵂ بأن يبدأ هو بما يريد، ففعل ﷺ، فقاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا!![1].

فمع أن الذي كان من الصحابة ﷺ شيءٌ من عدم التوقّع لما حصل، نتج عنه بعض التأخر في الاستجابة لأمر النبي ﷺ، إلا أنه جعل النبي ﷺ يجد من ذلك في نفسه حتى دخل على زوجه أُم سلمة ﵂ فيذكر لها ما وجد من الناس!

وحاشاهم ﷺ أن يكون ذلك منهم انتقاصًا لكلام

(١) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط رقم (٢٧٣١).

النبي ﷺ أو قلّة اكتراث به، وهم مضرب المثل في الأمة للانقياد التام والطاعة الصادقة والحب والامتثال، ولكن مجرّد التباطؤ فيه كان سببًا لوَجْد النبي ﷺ، فلم يزل الصحابة ﵃ يعُونَ هذا الدرس، حتى قال سهل بن حنيف ﵁ يوم صفّين: «اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله ﷺ لرددتُه»![(١)].

ولم يزل قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] قاعدة عظيمة من قواعد التعظيم لقول الله وقول رسوله ﷺ: (النص الشرعي)، وهذه الآية مفتتح سورة الحجرات، وهي السورة التي جاءت بتقرير الآداب الشرعية لأهل الإيمان مع ربهم سبحانه، ومع نبيهم ﷺ، ومع بعضهم البعض حال الوفاق والشقاق، ومع الناس جميعًا، فتصدير السورة بهذه الآية؛ يعني: اعتلاء هذا الأدب ـ وهو تعظيم النصّ الشرعي ـ على كل آداب الإسلام وتقدّمه عليها!

ومقتضى هذه الآية الجليلة: تأصيل التعظيم للنصّ الشرعي، وذلك بالنهي عن تقديم أيّ شيء بين يديه، بحيث يبقى النص متبوعًا لا تابعًا، وقد حُذف المفعول لقصد التعميم أو للقصد إلى نفس الفعل؛ أي: النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله[(٢)].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية والموادعة رقم (٣١٨١).
(٢) انظر: تفسير الرازي (١٠/ ١٠١)، فتح القدير للشوكاني (٥/ ٧٢).

قال مجاهد في معنى الآية: «لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه»(١).

وقال ابن زيد: «لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله»(٢)، وقال سفيان: «لا تقطعوا أمرًا دون رسول الله ﷺ»(٣).

قال السعديُّ: «هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسوله ﷺ، والتعظيم له واحترامه وإكرامه»(٤).

وخصّ ابن العربي هذه الآية بمسألة فقال عنها: «أصلٌ في ترك التعرّض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به»(٥).

وقد استفاضت النصوص الشرعية في بيان هذا الأصل العظيم وتقريره والتأكيد عليه، وهو توفير التعظيم والإجلال الوافيين للوحي الشرعي (كتابًا وسُنَّةً)؛ وصولًا إلى الخضوع والانقياد والاستسلام والعمل الخالص بما جاء به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٣٦).
(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٣٣٧).
(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٣٣٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٧٦٤).
(٥) أحكام القرآن (٤/ ١٤٥).

يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقول المصطفى ﷺ: «**لا أُلفيّن أحدَكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**»!![1].

وفي ذلكم غاية التأكيد الواضح على التلازم الوثيق بين الاستجابة والامتثال لمقتضى التكليف أمرًا ونهيًا، وبين تعظيم مورد هذا التكليف، وهو النص الشرعي.

وتحقيق مقصد الشريعة بتعبيد العباد لربهم وإخراجهم عن دواعي أهوائهم إنما ينطلق ابتداءً من ركيزة المهابة والتوقير لنصوص الشريعة، التي تورث الانقياد والطاعة، وأما المأسورون لأهوائهم والمنحدرون في مزالق العصيان والمنحرفون عن الهدى وصراط الله المستقيم، فإنما ضمُر أو مات في قلوبهم هذا التعظيم المنشود لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

بل بلغ التعظيم للنص الشرعي في كتاب الله إلى أن يكون حدًّا فاصلًا بين أهل الإيمان وغيرهم، فقد قال ربنا سبحانه عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة رقم (٤٦٠٥)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما نُهي عنه أن يقال عن حديث النبي ﷺ رقم (٢٦٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه: المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والتغليظ على من عارضه.

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٧، ٤٨]، فالإعراض والتولّي بحضرة النص الشرعي سمت المنافقين وشأنهم، ثم ذكر الله أهل الإيمان عقبهم بخلاف هذا المنهج تمامًا، فقال عنهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

إنه البرزخ الباطن بين القلوب المؤمنة المعظمة لنصوص الشريعة، والقلوب المنافقة التي نُزع منها هذا المعنى العظيم، وإن تشابهت ظاهرًا في لبوس الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين أنه لا يُقبل من أحد أن يعارِض القرآن رأيُه ولا ذوقُه ولا معقولُه ولا قياسُه ولا وَجدُه»(١).

وفي دقائق تطبيق هذا التعظيم للنص الشرعي يقول إمام المقاصد الشاطبيُّ: «إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية: فعلى شرط أن يتقدم النقل، فيكون متبوعًا، ويتأخّر العقل فيكون تابعًا، فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرّحه النقل»، ثم شرع يستدل لذلك رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٣).
(٢) انظر: الموافقات (١/ ٧٨).

وما أروع ما نقله الربيع عن الإمام الشافعي، لما روى حديثًا فقال له رجل: تأخذ بهذا يا أبا عبد الله؟ فقال: متى رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثًا صحيحًا فلم آخذ به والجماعةَ، فأُشهدكم أن عقلي قد ذهب، وأشار بيده على رؤوسهم[1]!!



(١) انظر: المدخل إلى علم السنن (٢/ ٦٣٢).

المبحث الثالث

تحقيق تعظيم الله ﷻ

تعظيم الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه مطلبٌ شرعيٌّ عظيمٌ، فهو مجمع الإيمان، وأساس العبودية، وصلب كل عمل صالح، وركيزة كل فضيلة، وجماع أعمال القلوب من حب وخوف ورجاء واستعانة وتوكل وإنابة وخشوع، وهو قِوام صلاح العبد وفلاحه.

بتعظيم الله سبحانه تقوم الأرض والسماوات، وبتمجيده وتسبيحه تنطق المخلوقات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم: ٩٠]: أي يتشقّقن من عظمة الله![(١)]

وما آفة الغواية والضلال والشرك بالله سبحانه إلا ناشئة من الجهل بحق الله سبحانه من التعظيم الواجب له ﷻ، وصريح هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ

---

(١) الدر المنثور (٥/ ٥٤٤).

وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

والأمر كما قال ابن القيم: «أن استقامة القلب تحصل بتعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذمّ من لا يُعظّمه ولا يعظّم أمره ونهيه، فقال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: مالكم لا تخافون لله عَظَمةً؟»(١).

إن تعظيم الله ﷻ قضية كبيرة في ميزان الشريعة، وعليها مدار التكليف، وهي واردة في الشريعة مقصدًا باعتبار، ووسيلةً باعتبار آخر:

فتعظيم الله مقصد لكل ما شُرع من العبادات القلبية والبدنية؛ إذ غايتها إثبات الفقر والحاجة والمسكنة للعبد، بخضوع وانقياد تام واستسلامٍ ظاهرٍ وباطنٍ، مع إثبات الكمال والغنى والقيومية للخالق سبحانه، وهذا هو حقيقة تعظيم الله ﷻ.

وهو وسيلة في ذاته في كثير من العبادات والأذكار القائمة على تعظيم الله سبحانه: فالتسبيح والتهليل والتكبير تعظيمٌ صريحٌ لله سبحانه، وهي مشروعة في أوقات متعدّدة وأماكن مختلفة، وجوبًا تارة واستحبابًا تارة أخرى، وكذلك الركوع والسجود في الصلاة، فإن انحناء الصلب ووضع الجبهة في

---

(١) الوابل الصيب (ص١٥)، وانظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٦٣٤).

الأرض تعظيمٌ صريحٌ لله سبحانه، يتأكّد بمثل قوله ﷺ: «**وأمّا الركوع فعظِّموا فيه الربّ** ﷻ»(١)، ومثل ذلك الحجّ المشتمل على مفارقة الأوطان واحتمال المشاقّ والتجرد من الشهوات وحظوظ النفس واجتناب بعض المباحات وقت الإحرام، كل ذلك تعظيمٌ جليٌّ لمن أحرم له الحاجّ منذ قوله في مستهلّ إحرامه: «**لبّيك اللَّهُمَّ لبّيك**»!!

ومن بديع كلام ابن القيّم رحمه الله: «وروحُ العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلّى أحدهما عن الآخر فسَدَت، فإذا اقترن بهذين الثناءُ على المحبوب المعظَّم فذلك حقيقة الحمد»(٢)، بل انظر كيف يربط شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قضية تعظيم الله تعالى بوحدانيته سبحانه، فيقول: «فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالة لعبده ورسوله، ثم لم يُتبع هذا الاعتقاد مُوجَبَه من الإجلال والإكرام، الذي هو حالٌ في القلب يظهر أثره على الجوارح، بل قارنه الاستخفافُ والتسفيهُ والازدراءُ بالقول أو بالفعل، كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجِبًا لفساد ذلك الاعتقاد، ومُزيلًا لما فيه من المنفعة والصلاح؛ إذ الاعتقادات الإيمانية تزكّي النفوس وتُصلحها، فمتى لم توجب زكاةَ النفس

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود رقم (٤٧٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).

ولا صلاحها فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب»[(١)].

إذا تقرر ذلك: فإن تعظيم الله ﷻ أصلٌ عظيمٌ قد لاحت معالمه في نصوص الشريعة وتكاليفها، ولئن كانت نصوص الأسماء والصفات الإلٰهية المبثوثة في الكتاب والسُّنَّة سبيلًا من سبل تحقيق تعظيم الله ﷻ، بمعرفة عظيم قدره وقدرته ﷻ؛ فإن تعظيم النص الشرعي سبيل آخر من سبل تعظيم الله ﷻ، ويتبين ذلك من وجوه ثلاثة:

١ ـ أن النص الشرعي وحيٌ إلهيٌّ عظّم الله شأنه ورفع قدره، ـ كما تقدّم في المبحث الأول ـ، فتعظيمُ ما عظّم الله تعظيمٌ له سبحانه.

٢ ـ أن الوحي الشرعي كلام الله سبحانه، وكلامُه صفةٌ من صفاته العليّة، فتعظيمه تعظيمٌ لله ﷻ.

٣ ـ أن تعظيم الرب ﷻ لا يتمّ إلا بتعظيم أمره ونهيه، والنص الشرعي وعاء الأمر والنهي الإلٰهييّن، فتعظيمهما متوقّف على تعظيمه.

ومن أجل ذلك يسعنا أن نقول: ما عظّم اللهَ من تهاون في النص الشرعي بصورةٍ ما، وسيقع من نقصه لتعظيم ربّه بقدر نقصه لتعظيم النص الشرعي ولا بدّ؛ لما بينهما من التلازم السابق ذكره، فالأخذ بطرف من النصوص دون طرف، أو

(١) الصارم المسلول (١/ ٣٧٥).

تقديم رأي أو قياس أو قول أحد كائنًا من كان عليها، أو الجرأة عليها بتأويل فاسد، كل ذلك مناقض لتعظيم النص الشرعي المستلزم لمناقضة تعظيم الله سبحانه، والعياذ بالله.

قال ابن القيّم: «أوّل مراتب تعظيم الحق ﷻ: تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه ﷻ برسالته التي أرسل بها رسوله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله ﷻ واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار والمشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر»(١).



(١) الوابل الصيب (ص١٤).

المبحث الرابع

تحقيق تعظيم حرمات اللّٰه تعالى

حثّ الله عباده في كتابه الكريم على تعظيم حرماته ومدح القائم به، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، فتعظيم الحرمات إذن مطلبٌ شرعيٌّ عظيمٌ؛ لأن «تعظيم حرمات الله من الأمور المحبوبة لله، المقرّبة إليه، التي مَن عظّمها وأجلّها أثابه الله ثوابًا جزيلًا، وكانت خيرًا له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه»(١).

والمقصود بحرمات الله: معاصي الله ومحرّماته ومغاضبه(٢).

«وكلُّ ما له حُرمةٌ وأُمر باحترامه بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله بالقيام بها»(٣).

وما ذكره المفسّرون من معانٍ مختلفة للحرمات فهو من باب اختلاف التعدّد، لا اختلاف التضادّ، والصواب: أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن: (٦٢٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٨).

(٣) تفسير السعدي (ص٥١٠).

الحرمات تعمّ ذلك كله، «وهي جمع (حُرمة)، وهي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن»[١].

فيدخل في الحرمات المطلوب تعظيمها من الحقوق: حق الله تعالى، وحق رسوله ﷺ، وحق الوالدين، ومن الأشخاص: نبينا ﷺ وصحابته الكرام ﷺ، ومن الأزمنة: رمضان والأشهر الحرم، وعشر ذي الحجة وليلة القدر ويوم عرفة ويوم عاشوراء، ومن الأماكن: مكة والمدينة والمساجد وعرفات ومنى والمزدلفة، ونحو ذلك.

وتعظيم الحرمات يكون بحسب الحرمة المراد تعظيمها؛ إذ تعظيم كل شيء بحسبه، لكن جماع ذلك أن تعظيمها: «توفيتها حقّها وحفظها من الإضاعة»[٢]، «وإجلالها بالقلب ومحبّتها وتكميل العبودية فيها غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل»[٣].

وقد تقرر في المبحث السابق أن مردّ ذلك إلى تعظيم الله ﷻ، فتعظيم حرمات الله فرعٌ عن تعظيم الله سبحانه، ومن عظّم الله عظّم ما عظّم سبحانه، ومنها: حرماته جلّ وعلا، وحسبنا إضافتها إليه: (حرمات الله).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٧٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير السعدي (ص٥١٠).

ثم يتفرع عن ذلك من صور التعظيم المراد وآحاده ما يتعلّق بكل حرمة مما يناسبها، بما دلّت عليه الشريعة وأرشدت العباد إليه، دون جفاء ولا غلوّ، بمنأى عن تعظيم أجوف، يتمثل في مظاهر مجردة يصادمها مناقضة صريحة لمقصود التعظيم من تحصيل العبودية وتكميلها.

فالنص الشرعي ـ بهذا المعنى ـ من الحرمات؛ لأنه من أعظم ما يجب احترامه؛ إذ به تتحقق عدد من مقاصد الشريعة ومطالبها ـ كما تقدّم ـ، ولأنه وحي الله المنزّل من فوق سبع سماوات على خير أنبيائه محمد ﷺ، بواسطة خير ملائكته جبريل عليه السلام.

وتعظيم حرمة النص الشرعي ـ كسائر الحرمات ـ بتوفيته حقّه من تعظيم القلب وتوقيره وتقديسه، ثم بحفظه من الإضاعة، وبالقيام بما يجب له من تقديم وامتثال، وبإجلاله عن معارضته بغيره، أو التأخر عنه أو التهاون في العمل به؛ وغيره من صور التعظيم ومعالمه الآتي ذكرها في الفصل الثاني.

وكل ذلك مطلوب محبوب شرعًا، ومن القربات التي يثيب الله من عظّمها وأجلّها ثوابًا جزيلًا، وكانت خيرًا له في دينه وأخراه عند ربه(١).

---

(١) المصدر السابق.

المبحث الخامس

تحقيق تعظيم شعائر اللّه تعالى

كما ورد الحثّ في كتاب الله على تعظيم حرمات الله تعالى، فقد جاء الحثّ أيضًا في كتاب الله على تعظيم شعائره سبحانه، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وتعظيمها فرع عن تعظيم الله تعالى كذلك، فتعظيمها من تعظيمه سبحانه، «ومضمون جملة: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ أخصّ من مضمون جملة: (ومن يعظّم حرمات الله)، وذكر الأخص بعد الأعمّ للاهتمام»[١].

وأمّا شعائر الله: فجمع شعيرة، وهي أعلام الدين الظاهرة ومعالمه، ونقل ابن العربي عدم الاختلاف على ذلك[٢]، ويدخل في ذلك أوامر الله سبحانه كلها[٣]، وسياق الآية في الإحرام وسائر مناسك الحج[٤]، وهدي التمتع والقِران على وجه الخصوص ـ وهي أولى بالسياق ـ بدلالة الآية بعدها: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٥٦).
(٢) انظر: أحكام القرآن (٣/ ٢٨٧).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٩).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٠) وما بعدها.

ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٣٣]، والمنافع المرادة هي أوجه الانتفاع من الهدي، بصوفه ولبنه وركوبه وما إلى ذلك[١]. ومما يؤكّد أن المقصود الأول بالشعائر في الآية هو الهدي: قول الله سبحانه في آية بعدها: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٌ﴾ [الحج: ٣٦]، فالتصريح بكونها من شعائر الله عقب آية تعظيم الشعائر يؤكد تناولها بالدلالة قبل غيرها.

وتعظيم الهدي باعتباره من شعائر الله من مقاصد الحج العظام، المبنية على تعظيم الله ﷻ، الذي لبّت له الجموع وكُشفت له الرؤوس وأقبلت الوفود تقصد بيته الحرام، وسياق الآيات في سورة الحج يقرر هذا المعنى بجلاء، باعتبار وصول العبد إلى تحقيق التقوى ـ وهي أحد مقاصد الحج وثمراته ـ من بوابة تعظيم شعائر الله في المناسك.

ومن هنا كانت عبارات السلف العجيبة في صور تعظيم الهدي والأضاحي، وأنه: الاستسمان والاستحسان والاستعظام[٢]، وعلّق البخاري في صحيحه عن أبي أمامة بن سهل قال: كنا نسمّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمّنون[٣]، فضلًا عن آثار السلف في تعظيم الهدي والأضاحي

(١) انظر: التفسير الميسّر (ص٣٣٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٠).

(٣) انظر: صحيح البخاري: كتاب الأضاحي، باب أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين، ووصله أبو عوانة في مسنده، وصحّح الحافظ ابن حجر سنده في تغليق التعليق (٥/ ٤).

أسوة برسول الله ﷺ، الذي أهدى مائة بدنة تعظيمًا لله[١]، ونهى عن إعطاء الجزار أجرته من لحمها تعظيمًا لله كذلك[٢].

ومع ذلك فإن لفظ الآية: ﴿شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ لا ينحصر في الهدي والأضاحي ـ وإن كان بها أخص ـ، فعموم لفظ ﴿شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ يتناول كل ما كان من أعلام دينه؛ لأنها جمع شعيرة، وهي المعلم الواضح، بمعنى مُشعِرة؛ أي: مُعلِمة بما عيّنه الله.

وقد نقل المفسرون في معنى الشعائر عن بعض السلف ما يدل على اتساع اللفظ لتلك المعاني، مثل قول محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبُدن من شعائر الله، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أعظم الشعائر البيت[٣]!!

ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ﴾ [البقرة: ١٨٢]، فقد جعل الصفا والمروة من شعائر الله، وهما من الشعائر المكانية، فالكعبة من باب أولى كما ذكر ابن عمر رضي الله عنهما، ومثلها الشعائر الزمانية كرمضان وعشر ذي الحجة ونحوها، وإذا تحقق في الصفا والمروة كونهما من شعائر الله بنص الآية؛ ثبت في حقهما التعظيم المطلوب في شعائر الله بما يناسبه في أداء النسك، قال السعدي: «يخبر تعالى أن الصفا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج رقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج رقم (١٧١٦)، ومسلم كتاب الحج رقم (١٣١٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٢).

والمروة ـ وهما معروفان ـ من شعائر الله؛ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبّد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله فقد أمر الله بتعظيم شعائره، فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، فدلّ مجموع النَّصّين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب»[١].

ومن الأقوال في تفسير الشعائر: «أنه دينُ الله وكتبُه، وتعظيمُها التزامُها»[٢]، فإن أعظم ما تُعظَّم به شعائر الله وأعلام دينه وملّته: إقامتها في الحياة، ورفع مناراتها، ودعوة الخليقة إليها، والحث عليها، ودفع الضلالات والافتراء عنها.

ولهذا قيل في تعظيم شعائر الله: «إجلالها والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد»[٣].

ويدخل في ذلك أعلام الدين وشعائره الظاهرة، كالأذان والصلاة والصيام والعيدين والجهاد ونحو ذلك، والنص الشرعي من آكد شعائر الله؛ لأنه منار الدين، ومشكاة الوحي، ومستودع الشريعة، ومستقرّ أحكامها.

وتعظيم النص الشرعي ـ بكل صور التعظيم السابق مثالها ـ مع سائر الشعائر صادر من تقوى القلوب، «فالمعظّم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٧٣).
(٢) أحكام القران لابن العربي (٣/ ٢٨٨).
(٣) تفسير السعدي (ص٥١٠).

وإجلاله»[١]، والمقصود في هذا المبحث: بناء تعظيم النص الشرعي على هذا الباب من تعظيم شعائر الله، تثبيتًا لأركانه وتأصيلًا متينًا لدعائمه.

(١) المصدر السابق.

خلاصة الفصل الأول

أن تعظيم النص الشرعي أصلٌ شرعيٌّ متين، يستمد مكانته وعظمته من أصول شرعية عظام، تنتظم مقاصد ومطالب شرعية متعددة، أمكن إبراز خمسة منها:

١ ـ تحقيق مقصد الشريعة من التنزيل، وهو تعظيم الشريعة واحترامها، تمهيدًا لهيمنتها ونفوذها في حياة العباد، ولا ريب أن تعظيم النصوص الشرعية من أجلى صور تعظيم الشريعة وإجلالها، في اتساق تام مع تعظيم الله سبحانه لوحيه في كتابه الكريم.

٢ ـ تحقيق مقصد الشريعة من التكليف، وهو الامتثال والانقياد، وأولى خطوات درب العبودية في هذا السبيل هي تعظيم نصوص الشريعة، ولا يتم للعبد خطوته الثانية في طريق الاستجابة والانقياد قبلها، وإنما ضرب جيل الصحابة ﷺ أروع الأمثلة في الطاعة والامتثال لعظيم تعظيمهم لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ تحقيق تعظيم الله ﷻ، وهو قاعدة العبودية المتينة ومنطلقها الراسخ، الذي تقوم على ساقه أصول العبودية، من الحب والخوف والرجاء، ومنه تتفرع سائر عبادات القلب،

ومهما تعددت صور تعظيم الله وأنحاؤه؛ فإن تعظيم النص الشرعي من أعظمها، فمن عظَّم الله عظَّم وحيه الذي حوى تكاليف الشريعة وأحكامها.

٤ - تحقيق تعظيم حرمات الله، الذي جعله الله سبيلًا من سبل نيل الخيرية وتحقيقها، وهي فرعٌ عن تعظيم الله تعالى؛ لأن الله عظَّم حرماته، فتعظيمها تعظيمٌ لله سبحانه، وهي كل ما له حُرمةٌ ومكانة تستوجب التعظيم، ومن أعظمها: نصوص الشريعة التي تكاثرت الأدلة بتعظيم الله لها.

٥ - تحقيق تعظيم شعائر الله تعالى، الذي جعله الله طريقًا لتحقيق التقوى وتأسيسها في القلوب، وهي أعلام الدين ومعالمه البارزة، ولئن أثبتت النصوص بعض الشعائر التي حثّ القرآن على تعظيمها كالصفا والمروة والبدن والهدي؛ فإن الكتاب والسُّنَّة من أعظم شعائر الدين، وعموم اللفظ ﴿شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ يتناوله، وبذلك تقررت عبارات السلف في تفسير اللفظ وبيان دلالته.



الفصل الثاني

معالم تعظيم النصّ الشرعي

المبحث الأول: حفظ النص الشرعي.

المبحث الثاني: توقير النص الشرعي.

المبحث الثالث: نصرة النص الشرعي.

المبحث الرابع: فهم النص الشرعي.

المبحث الخامس: خدمة النص الشرعي.

معالم تعظيم النصّ الشرعي

لما تبوّأ تعظيم النصّ الشرعي تلك المرتبة الرفيعة في مقاصد الشريعة ومطالبها، فقد كان لسلف الأمّة الكرام أعظم صور التعظيم، وأجلّ مواقف الإجلال للنص الشرعي كتابًا وسُنّةً، وهي أكبر وأكثر من أن تحصر في دراسة أو بحث؛ لأنها تحكي تاريخ الحياة العلمية والعملية لأجيال السلف، فإنّ قوامها كان تعظيم النصوص الشرعية بشتى صوره، وكانت بحقٍّ امتثالًا وتطبيقًا عمليًّا للمطالب والمقاصد الشرعية المتقدم ذكرها في الفصل الأول، ولا جرم أن تكون هذه إحدى سمات الخيرية التي تشرّفت بها أجيال السلف الأولى، ونالت بها ثناء المصطفى ﷺ: **«إنّ خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[1].

والمتصفّح لأخبار السلف وآثارهم يُدهشه ذلك التعظيم العظيم لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ بأنحائه المختلفة وفي مختلف مناحي الحياة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية... إلخ، وكان ذلك في القرون المتقدمة أكثر وأوضح، وكلما تباعد العهد بعصر التنزيل ضعُف ذلك التعظيم شيئًا فشيئًا،

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٦٥٢)، ومسلم رقم (٢٥٣٥).

فنبتت في الأمة نوابت الأهواء والبدع والعدوان على النص الشرعي، وما زالت مع تتابع الزمان تتدرج من التلويح إلى التصريح، ومن التخفي إلى المجاهرة، حتى أضحت مناهج منحرفة لها أغراضها وأساليبها ومناهجها وأتباعها والدعاة إليها، والله المستعان!!

وفي الجملة: فإن أزمنة السلف المتقدمة عاشت تعظيم النصوص الشرعية منهاج حياة، ومثل ذلك يعسُر حصره ووصفه، لكنه يمكن تقريبه في معالم بارزة تمثّل المجامع الآخذة بذلك التعظيم للنص الشرعي لدى السلف.

وهذا ما حاولت رقمه في هذا الفصل، مخصّصًا كلَّ معلم بمبحث يبيّن المراد به، وأمثلةٍ له من واقع السلف ﷺ وسلك بنا سبيلهم.

وجملة ذلك خمسة معالم جاءت في المباحث الآتية:

المبحث الأول: حفظ النص الشرعي.

المبحث الثاني: توقير النص الشرعي.

المبحث الثالث: نصرة النص الشرعي.

المبحث الرابع: فهم النص الشرعي.

المبحث الخامس: خدمة النص الشرعي.

ومردّ كل تلك المعالم في تعظيم النص الشرعي لدى السلف إلى أساس عظيم، هو الإيمان به، واعتقاد عصمته،

وقوفًا عند ذلك الناموس الإلٰهي الذي حكم الحياةَ البشريّةَ على وجه الأرض منذ اللحظة الأولى لإعلان هبوط آدم عليه السلام وحوّاء، وأن درب الهداية الكفيل بالعودة إلى المسكن الأول هو وحي الله تعالى، منبع الهدى ومشعل ضيائه، ومن دونه فالضلال والشقاء مصير العباد: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، فلما أيقن السلف رحمهم الله هذا الأصل العظيم عظُم شأن الوحي في صدورهم، وعرفوا حقه الواجب من الإجلال، وأنه مناط الهداية والنجاة، فكانت حياتهم ظاهرًا وباطنًا حافلةً بتعظيم نصوص الشريعة والاحتفاء بها وتقديسها والاعتصام بها.

فاجتمعت الجهود وتوفّرت الهِمم على الانكباب على النصوص عنايةً وحفظًا، واستنفارًا للجهود في فقهها ومعرفة مراد الله فيها؛ تلمُّسًا لمنافذ الهداية وسلوكًا لسبيلها، قال الإمام البيهقي رحمه الله: «فقد اجتهد المجتهدون من هذه الأمة في معرفة كتاب الله عز وجل، والوقوف على سُنَّة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم، وآثار أصحابه الذين شاهدوا التنزيل وعلِموا التأويل، وسمعوا أقاويل الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بيّن من الكتاب، وسَنَّ من الأحكام، ثم قاسوا ما لم يمضِ فيه كتاب ولا سُنَّة ولا إجماع ولا أثر على ما جاء فيه بعض ذلك بالدلائل المنصوبة عليه، فاختلف

اجتهادهم في بعض ما ذهبوا إليه؛ لغفلة بعضهم عن بعض السُّنَّة، أو عن موضع الحجة، أو عن استنباط العلة المؤثّرة، رحمنا الله وإياهم، وكلٌّ منهم قصَدَ قصْد الحق فيما تكلّف، واجتهد في أداء ما كُلِّف»(١).

وكل ما هو مرصود في المباحث الآتية فإنما هو فرع عن هذا الأصل العظيم، وجب بيانه والتأكيد عليه؛ لبيان منطلقات التعظيم الصادق الذي تمثّله سلفنا الصالح لنصوص الشريعة.



---

(١) المدخل إلى علم السنن (١/ ٥).

المبحث الأول

حفظ النص الشرعي

ثبت الوعد الإلٰهيّ بحفظ الوحي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]؛ «أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله ﷺ واستودعه فيه، ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل»[١]، في مقابل إيكال حفظ التوراة والإنجيل للربانيّين والأحبار من أهل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ «أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان وتعليمه لمن لا يعلمه»[٢]، فكانت النتيجة الضياع والكتمان والتحريف للتوراة والإنجيل، كما أخبر الله عنهم:

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٤٩٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٢٥٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٧٦).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝١٨٧﴾ [آل عمران: ١٨٧]، في الوقت الذي سخّر الله فيه من أُمّة الإسلام من يحقّق بهم وعده في حفظ القرآن جيلًا بعد جيل، لا فرق في ذلك بين عصور القوة والازدهار والظهور والتمكين للأمة، وعصور الضعف والتأخر والانحطاط، بل وفي أوقات الفتن والاستضعاف والاضطهاد ومواطنها، حين كان يُمتحَن المسلمون باقتناء المصاحف ويُقتلون بسببها، فإذا بهم ينسجون قصصًا أعجب من الخيال في حفظ القرآن وتلقينه وتوريثه لأجيالهم الناشئة، رغم المحنة وفتنة القتل، فكان بذلك آية ربّانية عظيمة، ومعلمًا بارزًا من معالم تعظيم الأمة كلام ربها الكريم، لا يحملها على ذلك إلا التعظيم العظيم لكلام الله العظيم.

وقد كان حفظ سلف الأمة للنص الشرعي على نوعين: حفظ صدور، وحفظ سطور.

أ ـ حفظ الصدور:

فأما القرآن: فقد تسابقت الأمّة في حفظه واستظهاره، ذكرانًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، عربًا وعجمًا، لا حامل لهم على ذلك إلا حبّ كتاب الله وتعظيمه والمنافسة في الشرف بحمله في الصدور ونيل البركة والفوز في الدارين به، وكنا ولم نزل

نعجب من صور الحفظ ونماذج الضبط والإتقان العجيب، الأشبه بأداء الآلات وأجهزة الحفظ التقنيّة!!

وأضحى من مقرّرات السلف في طلب العلم وتحصيله: البدء بحفظ كتاب الله وإتقانه، قبل الخوض في أيّ علم ودراسة مسائله، ولا يجيزون لأحد دراسة علمٍ وحضور حلقةٍ وحفظ متنٍ قبل حفظ كتاب الله الكريم، باعتباره المدخل الأساس لطلب العلم، ورتبته الأشرف، ودرجته الأولى في ارتقاء سُلّمه المنيف الشريف.

وهاكم طرفًا من عبارات السلف الحازمة الجليّة في هذا الباب:

قال الحافظ ابن عبد البرّ: «طلب العلم درجاتٌ ومناقِلُ ورُتَب لا ينبغي تعدّيها، ومن تعدّاها جملةً فقد تعدّى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدّى سبيلهم عامدًا ضلّ، ومن تعدّاه مجتهدًا زلّ، فأوّل العلم: حفظُ كتاب الله ﷻ وتفهّمُه»(١).

وقال الإمام النوويّ: «كان السلف لا يعلّمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن»(٢).

وعدّ ابنُ جماعة الأدبَ الأوّل من آداب طالب العلم في دروسه: «أن يبتدئ بكتاب الله العزيز، فيتقنه حفظًا، ويجتهد

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٦).
(٢) مقدمة المجموع (١/ ٣٨).

على إتقان تفسيره وسائر علومه فإنه أصل العلوم وأمّها وأهمّها»[1].

ويصف ابن خلدون حال الأمّة في الإجمال، فيقول: «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين، أخذ به أهل الملّة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم... وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من المَلَكات»[2].

وأعجب ما في هذا الباب: صنيع الصبيان والأعاجم والعوامّ في إتقانهم لحفظ القرآن، فإن ثلاثتهم لديه من العوائق ما قد لا يتمّ له بسببه حفظ القرآن:

فالصبيُّ: صغير العقل ضعيف الفكر منصرفٌ إلى اللهو عادةً، والأعجميُّ: لا يكاد يستقيم لسانه بحروف العرب، ولو استقام بها فلا يفقهها، فهو بين عقبة النطق الكؤود، وخندق الفهم العميق، والعامّيُّ: لا يحسن قراءةً ولا كتابةً، وأصعب ما عليه معاناتهما، ولا يتعاطى النص إلا تلقينًا متكررًا.

ومع ذلك: فلا حصر لعِداد حفظة القرآن وحملته في الصدور من هذه الأصناف الثلاثة، ومن غيرهم، فهل غير حبّ القرآن وتعظيمه دافع يقطع تلك العوائق ويزيل الصّعاب؟!

ثم لم تزل مجالس الإقراء وحلقاته والتصدّي لذلك

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص١٦٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٥٣٧).

والتفرّغ له وقضاء الأعمار فيه هديًا للسلف، منذ أن سنَّها أبو الدرداء ﵁، فعن مسلم بن مشكم قال: قال لي أبو الدرداء: اعدد من في مجلسنا، قال: فجاءوا ألفًا وستمائة ونيفًا، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرةً عشرةً، فإذا صلى الصبح انفتل وقرأ جزءًا، فيُحدقون به يسمعون ألفاظه![١].

وأبو عبد الرحمٰن السلمي ظلّ يُقرئ القرآن في مسجد الكوفة أربعين سنة، وهو راوي حديث: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»[٢]، عن عثمان ﵁، فيحدّث به ويقول: وذلك الذي أقعدني مقعدي هذا![٣].

وتتوالى أخبار القرّاء الذين وقفوا حياتهم في إقراء كتاب الله، وملازمة الحِلق في المساجد والجوامع ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً، صحةً ومرضًا، حضرًا وسفرًا، فهذا أقرأ القرآن نحوًا من ستين سنة[٤]، وذاك تصدّر للإقراء والتلقين ستين سنة فألحق الأحفاد بالآباء[٥]، وثالث ختم القرآن عليه أكثر من ألف نفس!![٦].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٤٦).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه رقم (٥٠٢٧).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٨).
(٤) كما في ترجمة بكار بن أحمد المقرئ، انظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٣٠٦).
(٥) هو: محمد بن أبي محمد بن أبي المعالي، انظر: معرفة القراء الكبار (٢/ ٥٦٩).
(٦) هو: ركن الدين إلياس بن علوان، كما في: معرفة القراء الكبار (٢/ ٦٨٧).

ولم تزل هذه النماذج شاهدة حية إلى يومنا هذا، في فئام نذروا حياتهم ووقفوا أعمارهم على تعليم كتاب الله الكريم وإقرائه في الحرمين وعامة بلدان الإسلام، عربها وعجمها؛ في المساجد والبيوت والمدارس والزوايا والخلاوي والمحاضر والأقبية والمخابئ.. آيةً عجيبة من آيات الله في حفظ كتابه، وتعظيم الأمة له عبر القرون!!

وما زلنا نشهد في حفلات التكريم والمسابقات القرآنية وبرامجها الإعلامية المتنوعة ما يحفظ للتاريخ حفظ الأمة لكتاب ربها؛ تعظيمًا له واحتفاءً به.

وأما السُّنَّة: فكان حفظ السلف لها وضبطها بالسند، مع العناية التامة بما يعتريه من وصل وانقطاع وصحة وضعف وسلامة واعتلال، فتلك صفحة أخرى من صفحات عظمة الأمة ومجدها التليد في تعظيمها للسُّنَّة والحفاوة بميراث المصطفى ﷺ، إنه بحق: أعجوبة ومفخرة من مفاخر الأمة ومضرب المثل بها في صناعة العلوم ورسم المناهج!

فملازمة أبي هريرة رضي الله عنه للنبي ﷺ وحرصه على سماعه وحفظ سُنَّته، جعلته على رأس الرواة المكثرين من حديث النبي ﷺ، وهو الذي لم يُسلم إلا سنة سبع من الهجرة فحسب[١]، لكنها الحفاوة بسُنَّة رسول الله ﷺ، حفاوة محفوفة

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ص١٥٧٢).

بالمهابة والتعظيم لقدرها العظيم في نفوس الصحابة ﷺ.

وأما شدّة التوقّي والتحفّظ عن رسول الله ﷺ في رواية قوله ونقل كلامه فهو أيضًا لونٌ عجيبٌ من التعظيم للحديث النبوي، تعظيمًا يحمل على المبالغة في حفظه وروايته، في الزمن الذي اعتمد فيه النقل على حفظ الذاكرة فحسب!

فالزبير رضي الله عنه يتوقّى التحديث خشية أن يخطئ فيكون كاذبًا على رسول الله ﷺ[1]، وابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يحدّث قائلًا: قال رسول الله ﷺ، ففعل ذات عشية، فنكّس، فإذا هو قائم محلَّلةً أزرار قميصه، قد اغرورقت عيناه وانتفخت أوداجه، وقال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا بذلك![2].

وزيد بن أرقم رضي الله عنه يُطلب منه التحديث عن رسول الله ﷺ فيعتذر قائلًا: كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد![3].

فضلًا عمّن كان لا يكاد يحدّث بحديثٍ مدّة طويلة مع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ رقم (١٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ رقم (٢٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ رقم (٢٥).

حفظه له، كما كان عمر وأنس وسعد بن مالك ﷺ، هيبةً وتعظيمًا![١].

فهل حفظٌ لحديث النبي ﷺ مبنيٌّ على التعظيم له والإجلال لمكانته فوق هذا؟!

وأما الرحلة في طلب الحديث وسماعه فتاريخ حافل وسُنَّة ماضية لأهل الحديث وحفّاظه، رحل جابر بن عبد الله ﷺ مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس ﷺ في حديث واحد[٢]، وساح أهل الحديث في الأرض شرقًا وغربًا في طلب الحديث النبوي وسماعه وحفظه، وسُطِّرت أعاجيب الأخبار في طول هذه الرحلات، وما اعترضها من مشاقّ وعقبات، ليس وراءها من دافع سوى الحب والتعظيم لحديث رسول الله ﷺ امتلأت بهما صدور السلف الكرام.

فكان نتاج ذلك حفظًا عجيبًا وإتقانًا بالغًا تجاوزا حدّ المألوف، ليس لمتون الأحاديث وضبط اختلاف ألفاظها وتفاوت مخارجها فحسب، بل حتى لأسانيدها وطرق رواتها وأسماء رجالها، لا يختلط عليهم اسم راوٍ بآخر، ولا إسناد حديث بإسنادٍ غيره، في زمن ليس فيه من آلات الحفظ ووسائله شيء، سوى تسخير العقول والقلوب وتفريغها لحفظ الوحي

---

(١) انظر: مقدمة ابن ماجه لسننه، باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ.
(٢) علّقه البخاري في ترجمة باب الخروج في طلب العلم، في كتاب العلم من صحيحه.

واحتوائه، فحُفظت سُنَّة رسول الله ﷺ قبل التدوين، ومُيِّز صحيحها من ضعيفها وثابتُها من مردودها، فما كان التدوين إلا إثباتًا لما حفظته تلك الصدور الواعية.

ب ـ حفظ السُّطور:

والمراد به الكتابة والتدوين، وقد شمل ذلك الكتاب والسُّنَّة على حدٍّ سواء.

أمّا القرآن: فقد جُمع مكتوبًا مرتين في عهد الصحابة ﷺ، أولاهما في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والأخرى في خلافة عثمان رضي الله عنه.

فالجمع الأول في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كان الغرض منه جمعه مكتوبًا مرتّب الآيات والسُّور، إذ كان مكتوبًا مفرَّقًا في الصحف وجريد النخل والحجارة والرِّقاق، فلما استحرّ القتل بقرّاء الصحابة يوم اليمامة أشار عمر على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع المصحف، فشرح الله صدره لذلك، وتمّ جمع المصحف عند أبي بكر رضي الله عنه حتى توفّاه الله، ثم عند عمر رضي الله عنه حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما[(١)].

«وهذا من أحسن وأجلّ وأعظم ما فعله الصدّيق رضي الله عنه، فإنه أقامه الله تعالى بعد النبي ﷺ مقامًا لا ينبغي لأحد من

(١) أخرجه البخاري القصة بطولها في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن رقم (٤٩٨٦).

بعده: قاتل الأعداء من مانعي الزكاة والمرتدّين والفرس والروم، وأنفذ الجيوش، وبعث البعوث والسرايا، وردّ الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرّقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة، حتى تمكّن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سرّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]»[١].

والجمع الآخر في خلافة عثمان رضي الله عنه لما اتّسعت الفتوحات وانتشر الإسلام وكثُر الداخلون فيه من غير العرب، فوقع اللحن في القرآن، وبلغ ذلك الخليفة عثمان رضي الله عنه فعزم على كتابة نُسخ من المصحف يبعث بها إلى الأمصار، لتكون إمامًا ومرجعًا للناس في القراءة، وأمر بإزالة ما بأيدي الناس من مصاحف وحرقها[٢].

وكلا التدوينين والجمعين في ذلك الزمن المبكّر من عُمُر الأمّة له أقوى الدلالات على حفظ عجيب لكتاب الله الكريم؛ صيانةً له وتعظيمًا، خصوصًا مع قلّة الإمكانات وحداثة التجربة، وعُسر المهمة الأشبه بالمتعذر، فقلّة المكتوب، وتفرقه، وعدم اجتماعه محفوظًا مرتّبًا؛ لم يساعد على تجاوز كل ذلك سوى التعظيم الجليل لكتاب الله في صدور الصحابة،

---

(١) فضائل القرآن، لابن كثير (ص٥٦).

(٢) أخرج البخاري القصة في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن رقم (٤٩٨٧).

الذي حملهم على استنفاد الوسع والطاقة، فهذا زيد بن ثابت ﷺ أمين هذه المهمّة والمكلّف بها يصف طرفًا من ضخامة الدور إذ يقول: «فتتبَّعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال»!![1].

قال الحافظ ابن كثير: «فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر ﷺ من حفظهما كتاب الله في الصحف؛ لئلا يذهب منه شيء بموت مَن تلقّاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصدّيق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده، فكانت عنده محروسةً معظَّمةً مكرَّمةً، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين؛ لأنها كانت وصيَّه من أولاده على أوقافه وترِكته، وكانت عند أم المؤمنين حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ»[2].

وأمّا تدوين السُّنَّة فأمرٌ أعظم وأشدّ عجبًا، من عدّة أوجه:

١ - أن السُّنَّة لم يسبق تدوينها في حياة النبي ﷺ، بل ثبت عنه النهي عن ذلك، إلا ما كان من وقائع محدودة كأمره بالكتابة لأبي شاه، وما كان من كتابة عبد الله بن عمرو بن

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٩٨٦)، والعُسُب: جمع عسيب؛ أي: الجريدة من النخل، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص، واللخاف: جمع لَخفة، وهي حجارة بيض رقاق. انظر: النهاية لابن الأثير (٤/١٠٧، ٢٣٩).

(٢) فضائل القرآن، لابن كثير (ص٦٤).

العاص رضي الله عنهما، وكل ذلك تدوين محدود جدًّا[١].

فابتداء الجمع والتدوين بعد ذلك هو بمثابة جمع ما لا حصر له ولا حدود ولا معالم من أقاويل النبي ﷺ وأحواله وأيامه، مما حفظته صدور الصحابة رضي الله عنهم وأبنائهم، وما تتناقله الرواة تحمّلًا وأداءً، ومع ذلك فلم يكن هذا صارفًا ولا عائقًا عن مشروع الأمة الضخم في تدوين السُّنَّة النبوية؛ لأن تعظيمًا عظيمًا وقر في أفئدة السلف، فكان هذا الانكباب على حفظ الميراث النبوي وتدوينه.

٢ ـ أن تدوين السُّنَّة يتطلّب أمرين غير يسيرين: ضبط المتن وصيانة ألفاظه، وضبط السند وتحديد رواته، وكلاهما قد تحقق بنجاح باهر منذ بداية التدوين للسُّنَّة، مع أن كلًّا منهما مشروع تفنى فيه الأعمار، لكنه التفاني الواجب للتعظيم الجليل الذي تقرر لهدي النبي ﷺ.

٣ ـ أن الأنحاء التي اتخذها التدوين في جمع السنن وتصنيفها كان غايةً في العجب، بين مسانيد وجوامع وسنن وموطّآت ومصنَّفات ونحوها.

وكل نحوٍ من هذه الأنحاء ذو مأخذ بديع وجهد عبقري، فالمسانيد التي تُرتّب أحاديثها على أسماء الصحابة الرواة لها،

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم رقم (١١١، ١١٢، ١١٣).

توزع حسب الرواة ومن يروي عنهم، والجوامع والسنن تتطلب تبويبًا فقهيًا وعقديًا ونحوها من أبواب التشريع، مما يحتاج إلى تراجم لأبوابه مستقاةٍ من الاستنباط من نصوص الأحاديث ودلالاتها، وهكذا في تدوين ذي اعتبارات متعدّدة.

٤ ـ أن هذا التدوين البديع لسنن المصطفى ﷺ استلزم فنونًا وأنشأ علومًا قامت على سوقها خدمةً لهذا الغرض الجليل، مما سيأتي تفصيله في المبحث الخامس، من علوم الحديث روايةً ودرايةً، تصدّى لها الجهابذة، وارتحل فيها الأئمة، وأُلِّفت فيها الكتب الكبار ذوات المجلدات، والأجزاء الحديثية الصغار، من أجل خدمة هذا الجمع والتدوين للسُّنَّة النبوية، فما عرف التاريخ الإنساني علمًا تسخّرت لأجله علوم بأكملها لخدمته، كما خدمت علومُ الحديث حديثَ رسول الله ﷺ!!

فكان هذا التدوين والحفظ المسطور بوابة لعلوم شريفة متعددة الأنحاء خدمة لحديث النبي ﷺ وحفظًا وصيانة له ونشرًا في العالمين، ونقلًا له بأمانة إلى أجيال المسلمين اللاحقة.

فهل وراء هذه الجهود الجبارة في حفظ السُّنَّة وتدوينها التي تفانى فيها السلف إلا التعظيم الصادق للسُّنَّة؟!



المبحث الثاني

توقير النص الشرعي

المراد بالتوقير هنا نوع من التعظيم الخاص للنص الشرعي، وهو التعظيم العملي المتمثّل في احترام النّص الشرعي، والوقوف عند مقتضاه، وسرعة الامتثال، وعدم التقدّم بين يديه بقول أو فعل، وكل ذلك قد تقدّم تأصيله في الفصل الأول، باعتباره مقصد الشريعة من التكليف، بتمام امتثال المكلّفين، وعدم تقدّمهم بين يدي النصوص الشرعية مطلقًا.

وقد كان للسلف الكرام ﵃ القدح المعلّى في هذا المَعلم، بل بهم يُضرب المَثل وتُشحذ الهمم في تعظيم النص وتوقيره، بتمام الامتثال له، والخضوع لحكمه، والانقياد ظاهرًا وباطنًا عن طواعية ورضىً تامّين، مما يعزّ مثاله في الأجيال اللاحقة!

بل ليس من المبالغة القول بأن حياتهم كلها وتاريخهم أجمع كان تعظيمًا عمليًا للنص الشرعي وتوقيرًا صادقًا، بتحكيمه في شتى جوانب الحياة، والبحث عنه بغية العمل به في كل شأن، على حدّ قول الإمام سفيان الثوري: «إن

استطعت ألا تحكّ رأسك إلا بأثر فافعل»![(١)].

وعندئذ فلن يسع المقام أن نحكي شواهد ذلك من حياة السلف؛ لأنه يستلزم حكاية تاريخ جيل بتفاصيله، ولكني سأورد شذرات من ذهب صاغتها أقوال السلف وأفعالهم في هذا الباب، ولكثرتها ووفرتها فسأجعلها موزعة على المحاور الآتية:

١ ـ سرعة الامتثال لحكم النص أمرًا ونهيًا، وتطبيقه فور بلوغه دون تردّد أو تأخّر، وهذه أمارة صدقٍ لتعظيم النّص، كما في حديث ابن عمر ﵄ قال: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة فاستقبِلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة»[(٢)]!

وكما في قصة أنس بن مالك ﵁ لمّا كان يسقي عمومته الخمر قبل تحريمها في دار أبي طلحة ﵁، فجاءهم آتٍ فقال: إن الخمر قد حُرِّمت، فقالوا: أكفئها، فكفأتُها[(٣)]، وفي

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة ومن لم يرَ الإعادة على من سها فصلّى إلى غير القبلة رقم (٤٠٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة رقم (٥٢٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، بابٌ نزل تحريم الخمر وهي من البُسر والتمر رقم (٥٥٨٢، ٥٥٨٣).

لفظ قال: فجرت في سِكَك المدينة، وفي لفظ قال: فما راجعوها، ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل![1].

فأن يتحّول المصلّون في قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة وهم في الصلاة، فيكون إمامهم خلفهم، دون تريُّثٍ ولا استبطاء، ولا منازعة الخواطر والواردات على النفس في موقف كهذا.. وأن يُسارع القوم في إراقة شراب لهم كان حلالًا، دون تفكير في طريقة أخرى يُحفظ بها المال، أو يُنتفع بها مما كان مباحًا قبل تحريمه.. كل ذلك بمجرّد بلوغهم النّص: آيةٌ في تعظيمه وتوقيره!!

ولما يوصف رجلٌ حديدُ الرأي مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه كان وقّافًا عند القرآن، فإنه يعني تطويع النفس وتوطينها على تعظيم النص الشرعي، ونزعها أمامه عما ألِفَتْه من اعتدادٍ وصلابة رأي وحِدة في الفكر والرأي، وهو يعني: أن الطبائع الفردية والخصائص الشخصية لآحاد الصحابة مهما تفاوتت وتباينت.. فإنها تتفق في أمر لا يخضع لذلك التفاوت، وهو تعظيم النص الشرعي وإجلاله، والإذعان له!!

ولنتأمل هذا الموقف: قال ابن عمر رضي الله عنهما: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لِمَ تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وأنها تكون من عصير العنب ومن التمر والبُسر والزبيب وغيرها مما يُسكر رقم (١٩٨٠).

قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ فقال: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»![(١)].

مدهشٌ هذا الصنيع المبنيُّ على هذا المبدأ! لكن الأكثر دهشةً استقرار هذا المعنى في نفوسهم، وسريان هذا المبدأ في حياتهم، ليكون حديث مجالسهم وبَوح صدورهم!!

٢ ـ شدّة التمسّك بمقتضى النصّ ودوام الامتثال له مدى الحياة، في مجاهدة عظيمة تثبت تعظيمًا عظيمًا وتوقيرًا بالغًا للنصوص الشرعية وأحكامها.

فامتثال الشريعة والاستجابة لأمرها ونهيها والمبادرة إلى ذلك دون تلكّؤٍ أو تباطؤٍ؛ صورةٌ من صور التعظيم تقدّم ذكرها، وهي صلبة القاعدة عظيمة الرسوخ.. لكن استدامة ذلك الامتثال وإقامة نمطِ الحياة وِفقَهُ، وصِياغة تفاصيل العيش في إطاره لا يخرج عنه ولا يتجاوزه.. آيةٌ أخرى عجيبة المعنى، فريدة المأخذ، تستند إلى عزائمَ متينةٍ وهممٍ عانقت الجوزاء!!

فهذا ابن عمر رضي الله عنهما يروي قول المصطفى ﷺ: «**ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه يبيت ليلةً أو ليلتين إلا ووصيّته عنده مكتوبة**»، ثم يقول: فما مرّت عليّ ليلة منذ سمعتُ رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي![(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب حديث رقم (٩٠٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب وصية الرجل مكتوبة عنده رقم (١٦٢٧).

«فما مرّت عليّ ليلةٌ...» تذييلٌ عظيم له دلالته على الرواية، ما زال يلقي بظلاله إلى اليوم على القلوب قشعريرةً ودهشةً وإعجابًا!!

وذاك أبو هريرة ﷺ يصف حاله فيقول: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث، لا أدعهنّ حتى أموت، صوم ثلاث أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[1].

فقوله: «لا أدعهنّ حتى أموت» لم تكن إقحامًا في الرواية لا صلة لها بلفظ الحديث، لكنها كانت رسالة لأجيال الأمة اللاحقة تحكي شأن الجيل الكريم في شأن تعظيمِ النصوص وكيفيته، وتحوُّلِ القضية إلى منهج حياة يظللها حتى الممات!!

إنه لمن اليسير أن يأخذ المسلم نفسه بحزم ويلزمها حكمًا مّا في مسألة مّا، خصوصًا في ساعات الحماسة وفَورة العزيمة، لكن ديمومة العمل عليه واستمرار حمل النفس عليه جهدٌ عظيمٌ وجهادٌ بالغٌ، عاشه السلف واستسهلوه؛ حبًّا للنّص الشرعي وتوقيرًا له.

٣ ـ إيثار مقتضى النص وتقديمه على الهوى ومحابّ النفوس، وتلك منزلة سنيّة تفوق مجرّد الامتثال للنص والعمل به؛ لأنها تتجاوز مجرّد العمل والامتثال الظاهري إلى تفضيله في الباطن وقرارة النفس على الأهواء والرغبات.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب التطوع، باب صلاة الضحى في الحضر رقم (١١٧٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى رقم (٧٢١).

ولا زلتُ أعجب من حديث ظُهير بن رافع ﷺ قال: لقد نهانا رسول الله ﷺ عن أمرٍ كان بنا رافقًا، قلتُ: ما قال رسول الله ﷺ فهو حقٌ... وذكر الحديث، ثم قال رافع بن خديج ﷺ: قلتُ سمعًا وطاعة[١]، وفي لفظ قال رافع ﷺ: فجاءنا ذات يوم رجلٌ من عمومتي، فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن أمرٍ كان لنا نافعًا، وطواعيةُ الله ورسوله أنفع لنا، نهانا أن نُحاقِل بالأرض، فنُكريها على الثلث والربع والطعام المسمّى[٢].

فكون الأنصار أصحاب زرع يقتضي أن تكون مصلحتهم في مزارعهم وما يؤجّرونها به، فلما يأتي النهي عن أمرٍ كان فيه نفعٌ ومصلحةٌ وحظٌ لهم، لا يتوانى عن السمع والطاعة، بل ويقول: «وطواعية الله ورسوله أنفع لنا»!!

الله أكبر! إنها والله شعار حياة..!!

وإنه لبابٌ عظيمٌ من أبواب فضل السلف على الخلف، وإنّا لأشدّ ما نكون حاجة في حياتنا اليوم وفي مجتمعاتنا المسلمة إلى إحياء هذا المعنى السامي في الأفئدة، وأن نعيشه قناعةً وطمأنينةَ نفسٍ وانشراحَ صدرٍ، فنتنازل عن حظوظنا الشخصية ومطامعنا الدنيوية إذا عارضت النّص الشرعي؛ لتكون

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المزارعة، باب كان من أصحاب النبي ﷺ يواسي بعضهم بعضًا في المزارعة والتمر رقم (٢٣٣٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البيوع، باب كراء الأرض بالطعام رقم (١٥٤٨).

الهيمنة له، والسلطة لحكمه، والطاعة لأمره ونهيه!

٤ ـ العمل بالنص وامتثاله وقت الصّعاب والشدائد والمضائق، فهذا مُنعطَفٌ آخرُ من منعطفات الصدق في تعظيم النص الشرعي وتوقيره، وهو من آكد الأمارات الراسخة في تعظيم القلوب لوحي ربها، ألا يكون في وقت الرخاء دون الشدّة، ولا في اليُسر دون العُسر، فإن مواطن الصعاب والشدائد أشق في التحمّل وأعظم في عناء العمل.

وحين نجد في حياة السلف نماذج لذلك نعلم أنهم بلغوا في تعظيمهم للنص الشرعي ما يتجاوز حدود التنظير المجرّد والوصف الأجوف، وللإمام أحمد في هذا السياق موقف بديع، ذلك أنه لما وقعت المحنة بالقول بخلق القرآن، واستُدعي الأئمة لامتحانهم خرج الإمام أحمد من داره مختبئًا في دار تلميذه إبراهيم بن هانئ، ومكث عنده ثلاثًا، ثم قال: اطلب لي موضعًا، فقال له ابن هانئ: لا آمن عليك! قال: افعل، فإذا فعلتَ أفدتُّك، فطلبتُ له موضعًا، فلما خرج قال: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحّول![1].

تالله ما أعجبه من تعظيم للنّص وتوقير صادق يشهد له العمل في أصعب المواقف وأحلك الظروف، أهذا موضع يسع المرءَ فيه أن يخلص بفكره إلى محنته والبحث عن مخرج منها؟

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٦٤).

والموقف موقف شدةٍ وكرب وبلاء، بل فتنة وحبس وتعذيب. . . ، أم يخلص الفكر إلى توقف وامثال، بل إلى بحث عن مواضع اقتداء واستنان؟

عندما يظل الذهن والعقل والقلب منشغلًا بقضية تعظيم الوحي وطاعته رغم الهمّ المُطبق والغمّ المحيط والكربة العظيمة. . ندرك أن تعظيم نصوص الشريعة قد بلغت مبلغها في الاستحواذ على همّ القلوب وفكر العقول وخفق الأفئدة، فللّه درُّهم!!

ثم نطق رَحِمَهُ اللهُ بما حقّه أن يكتب بماء الذهب فقال: «وليس ينبغي أن تُتبع سُنَّة رسول الله ﷺ في الرخاء، وتُترك في الشدة»[1].

ولا عجب. . أفليس أحمد رَحِمَهُ اللهُ إمام أهل السُّنَّة؟!

٥ ـ الغضب والعتب وشدة النكير على من يخالف النص، أو يتهاون به، أو لا يبدو عليه توقير النص الشرعي، ولو كان المخالف أو المتهاون بالنّص من الأصحاب أو الأبناء، ومن يُشرع في حقهم الرفق والعطف والرحمة؛ لأن مقام التعظيم لوحي الشريعة أرفع وأعظم في القلوب من سائر مقامات الحب والعطف والرأفة!

روى الإمام مالك في الموطأ أن معاوية بن أبي

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (٤٢٠).

سفيان ﷺ باع سقايةً من ذهب أو ورِق بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء ﷺ: سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، فقال معاوية: ما أرى بهذا بأسًا! فقال أبوالدرداء: مَن يعذِرني من معاوية؟! أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه؟! لا أساكنك بأرض!!(١).

لقد كان موقفًا مُلهِمًا للأئمة، فعلّق الإمام الشافعي على الرواية بقوله: «فرأى أبو الدرداء الحجة تقوم على معاوية بخبره، ولما لم يرَ ذلك معاويةُ فارق أبو الدرداء الأرض التي هو بها؛ إعظامًا لأن تَرَكَ خبر ثقة عن النبي ﷺ»(٢).

ثم حكى الشافعي موقفًا شبيهًا به لأبي سعيد الخدري ﷺ مع رجل خالف خبرًا رواه له عن النبي ﷺ، فقال له أبو سعيد: والله لا آواني وإياك سقف بيتٍ أبدًا!!(٣).

إنها المفاصلة في قضية لا تخضع عندهم للمساومة والمقايضة، ولا احترام فيها للمخالفة واستبداد الرأي والهوى بحضرة النص الشرعي!

وهذا ابن عمر ﷺ وقد حدّث ذات يوم بحديث النبي ﷺ: «إذا استأذنت أحدَكم امرأتُه إلى المسجد فلا يمنعها»، فقال ابنه بلال: والله لنمنعهنّ، فغضب عبد الله غضبًا

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ١٣٥)، والنسائي (٢/ ٢٢٢).
(٢) الرسالة (ص٤٤٧).
(٣) المصدر السابق.

شديدًا، وقال: أحدّثك عن رسول الله ﷺ وتقول: لنمنعهنّ؟![1].

لم يكن قول بلال رفضًا صريحًا للحديث النبوي، لكنه متأوَّل على أنه يحق له منع امرأته لو بدا له ما يدعو إلى رفض استئذانها، مستصحبًا في ذلك ولاية الزوج وحقّه المشروع على زوجته في الطاعة، ومع ذلك فلم يجد له أبوه عذرًا لموقف كهذا في مقابلة النص الشرعي[2].

قال ابن الملقّن في فوائد هذا الحديث: «وتأديب العالم من يتعلّم عنده إذا تكلّم عنده بما لا ينبغي، وتقديم حق الله ورسوله على غيرهم، والقول بالحق وإن كان المقول له قريبًا»[3].

وكان عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه جالسًا إلى جنبه ابنُ أخٍ له، فَخذَف[4]، فنهاه وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنها، وقال: **«إنها لا تصيد صيدًا ولا تنكي عدوًا، وإنها تكسر السنّ وتفقأ العين»**[5]، قال: فعاد ابن أخيه يخذفُ، فقال له: أحدّثك أن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس رقم (٨٦٥)؛ ومسلم: كتاب صلاة المسافرين.

(٢) وقد جاء أنه سبّه سبًّا وقطع الكلام معه حتى مات، انظر: شرح سنن ابن ماجه للسندي (١/ ١١).

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٢/ ٣٩٣).

(٤) الخَذْف: هو أن يجعل الحصاة أو النواة بين السبابتين ويرمي بها، انظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٧٤).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب النهي عن الخذف رقم (٦٢٢٠).

رسول الله ﷺ نهى عنها، ثم عدتَ تخذف؟ لا أكلّمك أبدًا![1].

تختلف القضايا والأحداث، ويختلف أصحابها، وربما اختلف زمانها ومكانها، لكن المواقف فيها تواطأت على الغيرة على نصوص الشريعة وإقامة حجاب المهابة لها في النفوس، والغضب عند تجاوزها من أيّ شخص كان!!

إن هذا الحزم منهم ﷺ مع من لا يرونه يقف عند النص توقيرًا وعملًا وعدم تقدّم بين يديه لهو من عظيم توقيرهم للنص الشرعي وتعظيمهم لجنابه، فبقيت رسالةً لأجيال الأمة إلى اليوم، ما زلنا نقرأ أسطرها بعناية، ونستلهم منها المنهج القويم في التعامل مع كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، فرضي الله عنهم، وسلك بنا سبيلهم.

٦ ـ تربية الأمّة قولًا وعملًا على توقير النصّ الشرعي، بامتثاله وعدم التقدّم عليه، وترك كل شيء إليه، أما العمل: فقد تقدّمت نماذج عدّة في توقيرهم وتعظيمهم، وهي تربية عملية منهم لأبنائهم والأجيال من بعدهم كما تقدّم.

وأما القول: فلهم في هذا المعنى أجمل العبارات وأصدق الألفاظ، التي كانوا ينصحون بها الأمّة في لزوم الأدب مع النصّ الشرعي توقيرًا وتعظيمًا، ومن ذلك قول ابن

---

(١) أخرجه ابن ماجه: المقدمة رقم (١٧).

مسعود رضي الله عنه: «إذا حدّثتُكم عن رسول الله ﷺ فظنّوا برسول الله ﷺ الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه»، ومثله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

وكذلك قول أبي هريرة رضي الله عنه لرجل: «يا ابن أخي: إذا حدّثتُك عن رسول الله ﷺ حديثًا فلا تضرب له الأمثال»[٢].

حتى أفرد الإمام ابن ماجه بابًا في مقدّمة سننه، ترجم له بقوله: باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه، ساق فيه من الروايات والآثار ما تقرّ به عيون المعظّمين للوحي عمومًا، وللسُّنَّة خصوصًا، ولك أن تفهم مغزى جعل هذا الباب مقدمة لسننه، وبين يدي سوقه الأسانيد الموصلة إلى أقاويل المصطفى ﷺ مبثوثة على الكتب والأبواب.

ومن هذا الباب في تربية الأمّة على تعظيم النص الشرعي وتوقيره صنيع الإمام الشافعي لما سأله رجل عن مسألة، فقال له: يُروى عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا، فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي رحمه الله، واصفرّ وحال لونه، وقال: ويحك! وأيّ أرضٍ تُقِلُّني وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ شيئًا فلم أقل به؟! نعم.. على الرأس

(١) أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه رقم (١٩، ٢٠).
(٢) المصدر السابق رقم (٢٢).

والعينين، على الرأس والعينين!![1].

والله ما أحلاها من عبارة.. وما أمتعه من لفظ: على الرأس والعينين!!

وإنما تربّى الشافعي على هذا التوقير والإجلال لنصوص الشريعة بين يدي من سبقه من الأئمة، فانظر إليه وهو يروي عن ابن أبي ذئب أنه روى حديثًا لصاحب له، فسأله صاحبه: أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدره، وصاح عليه صياحًا كثيرًا، ونال منه، وقال: أحدّثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به؟! نعم.. آخذ به! وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه، إن الله اختار محمدًا من الناس فهداهم به، وعلى يديه، واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك، قال: وما سكت حتى تمنيتُ أن يسكت!![2].

وفي قصة أخرى يرويها الإمام الشافعي عن أئمة العلم والفتوى في زمانهم تحكي هذا المنهج من توقير النص الشرعي وإيفائه حقه من المهابة والجلال: قال ابن أبي ذئب: قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية، برأي ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن (ربيعة الرأي)، فأخبرته عن النبي ﷺ بخلاف ما قضى به، فقال سعد لربيعة: هذا ابن أبي ذئب ـ وهو عندي

---

(١) انظر: المدخل إلى علم السنن (١/٦).
(٢) انظر: الرسالة (ص٤٥٢).

ثقة - يخبرني عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيتُ به؟ فقال له ربيعة: قد اجتهدتَّ ومضى حكمك، فقال سعد: واعجبًا! أُنفِذُ قضاءَ سعد ابن أم سعد وأردُّ قضاء رسول الله ﷺ؟! بل أردُّ قضاء سعد ابن أم سعد، وأُنفِذُ قضاء رسول الله ﷺ، فدعا سعد بكتاب القضية فشقّه، وقضى للمقضيّ عليه!!(١).

وأمثلة هذا الباب في حياة السلف حافلة بدُررٍ من صادق البيان وناصعه، نصحًا للأمة وتربيةً لها على تعظيم النص الشرعي وإيلائه حقّه من التوقير، فللّه درُّهم.



(١) انظر: الرسالة (ص٤٥٠).

المبحث الثالث

نصرة النّص الشرعي

إن الذبّ عن النص الشرعي ونصرته ضدّ خصومه والمغرضين المناوئين يُعتبر لونًا من ألوان تعظيم النّص الشرعي الذي حفلت به حياة السلف الكرام، وهي ليست منحصرة في صورة أو اثنتين، بل كل وجهٍ يتمّ به الذبّ والانتصار لنصوص الشريعة داخل في هذا الباب، لكن المقصود ههنا لون خاص من النصرة، وهي النصرة العلمية تأليفًا وتدوينًا، ومناظرةً واحتجاجًا.

وقد ظهرت في الأمّة مذاهب وأقاويل مبتدَعة، ليس لها من تعظيم النص الشرعي نصيب، فعمدت إلى إنكارها أو تعطيلها أو تحريفها، ولم يكن شأن السلف تجاه ذلك إلا نصرة النص الشرعي، ودفع صور العدوان عليه بأي وجهٍ كان، ولعلّ أبرز تلك المواقف ما يلي:

١ ـ بدعة المعتزلة القائلة بخلق القرآن، وهي مقولة مجردّة تمامًا من تعظيم كلام الله ﷻ، تنفي صفة الكلام عن الله، وتعدّ القرآن خلقًا من خلق الله ـ تعالى الله ـ، وألقت هذه البدعة المظلمة بظلالها الآثمة على أمة الإسلام زمنًا ليس

باليسير في الخلافة العبّاسية، فكان أئمة السلف في غاية تعظيمهم لكتاب الله الكريم وهم ينصرونه ويدفعون بطلان القول بخلقه، باذلين في ذلك أرواحهم وأبدانهم، وهم يصبرون على جَوْر الحكام وأذاهم وتعذيبهم، فكانت محنة تاريخية لأمة الإسلام، ابتُلي فيها أئمة السلف، فقُتل بعضهم، وحُبس بعضهم، وعُذّب بعضهم عذابًا شديدًا، فما لانت لهم قناةٌ، ولا انكسر لهم صُلبٌ، ولا وهنت منهم عزيمة، كيف! والموقف موقف نصرة لكتاب الله العظيم، وتعظيمه بإثبات قدسيته والصفة الإلٰهية له!![1].

لقد كانت صفحةً مشرقةً من تاريخ الأمة أثبتت فيها إيمانًا عجيبًا ويقينًا راسخًا وجهادًا عظيمًا، بل كانت ملحمةً علميةً مدهشةً، أبطالها علماء الأمة وأئمة الإسلام، نقشوا بها على ذاكرة التاريخ كيف يكون الفداء والتضحية نصرةً لكلام الله العظيم![2].

وفي تفاصيل قصة الإمام أحمد وهو في لُجّة فتنتها: أنه لما أحاط به رؤوس المعتزلة في مجلس الخليفة يناظرونه ويحملونه على الباطل ويضغطون عليه بوجوب طاعة ولي الأمر

---

(١) أوذي بعض الأئمة كأبي نعيم الفضل بن دكين وعفان بن مسلم، وقُتل بعضهم كنُعيم بن حماد وأحمد بن نصر ومحمد بن نوح وغيرهم.

(٢) انظر في تفاصيل الحادثة: البداية والنهاية، أحداث سنة ٢١٨هـ (١٤/ ٢٠٧) وما بعدها.

وإجابته، وتارةً يُغْرونَهُ بتخلية سبيله، بل بإجلاله ورفع مكانته إن وافقهم على القول بخلق القرآن، كان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لهم دومًا: أعطوني آية من كتاب الله، أو حديثًا من سُنَّة رسول الله ﷺ أذهب إليه![1].

إنه تحقيق لمقصد تعظيم النص الشرعي بمنهج تعظيم النص الشرعي نفسه!!

ويلحق بهذه النصرة لكتاب الله، ودفع مقولة المعتزلة الباطلة عنه: كل جهود علماء السلف في هذا الباب، تأليفًا ومناظرةً وردودًا، حتى كُسِرت شوكة المعتزلة بفضل الله، وآل أمرهم إلى ذبول وخمول وانحسارٍ، فتلاشٍ وانقراضٍ.

٢ ـ مقولة الرافضة بتحريف القرآن ونقصه، «وأننا لا ندري لعلّ الذي في أيدينا من القرآن أقلُّ من عُشر ما أنزله الله تبارك وتعالى، وأن الدَّاجن والغنم قد أكل كثيرًا مما كان أُنزل، وذهب على الأمّة حِفظُه وضبطُه، وأنّ عِلمَ ذلك ومعرفته عند الإمام الوافر المعصوم»![2].

ونحو ذلك من خرافاتهم المتفرّقة في تفاصيلها، المجتمعة في تهافتها وبطلانها ووصفها لكتاب الله بالتحريف والتبديل، كما يثبته بعض كبار مراجعهم، وإن أخفاه أو نفاه بعضهم تقيةً،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٢٧).
(٢) الانتصار للقرآن (١/ ٢٢).

أو خالف فيه آخرون منهم، لكنها فرية باطلة لم يتجرأ أحد من الطوائف المنتسبة إلى الأمة على القول بها مثلهم، كما هو مقرر في رسالة: فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، لحسين بن محمد النوري الطبرسي، الذي صنّف رسالته تلك في هذه العقيدة الباطلة، وكما هو مقرر في فصول من كتابهم المرجع: الكافي للكليني[١]، وفي كتاب الحجة من أصول الكافي روايات لا يبقى معها للإسلام موضع في قلب صاحبها، في نسبة روايات مكذوبة عن أبي جعفر بتحريف بعض الآيات[٢]، فضلًا عن تصريحات أئمة القوم بهذه المقولة الفاسدة، يقول الشيخ المفيد: «إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الحذف والنقصان»، ويقول العاملي: «اعلم أن الحق الذي لا محيص عنه بحسب الأخبار المتواترة الآتية وغيرها أن هذا القرآن الذي في أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله شيء من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيرًا من الكلمات والآيات»، وغير هذا من النقول الصريحة المفتراة كثيرٌ![٣].

---

(١) انظر: الكافي للكليني (٢/ ٦١٩، ٦٣٣).

(٢) انظرها (١/ ٤١٧).

(٣) انظر في توثيق ذلك مع النقلين السابقين: بحث شامل حول اعتقاد الشيعة بتحريف القرآن الكريم بالوثائق من كتبهم، على صفحة: (شبكة الدفاع عن السُّنَّة)، في الشبكة العنكبوتية.

فانبرى أئمّة السلف لنصرة كتاب الله ودفع هذه الأباطيل عن ساحته، وكشف سوءة هذه المقولات، ورفع راية التعظيم لكتاب الله الكريم، ومن أشهر ذلك كتابا «الانتصار للقرآن» للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، و«منهاج السُّنَّة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فضلًا عما تضمّنته كتب العقائد من فصول فاضحة لتلك الافتراءات، منتصرة لكلام رب العالمين، وانتهاءً بالدراسات والبحوث العلمية المعاصرة التي ورثت تعظيم كلام الله، فنافحت عنه وانتصرت له[١].

٣ ـ مذهب المعتزلة في إقصاء السُّنَّة عمومًا، وعدم الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقائد خصوصًا، بدعوى أنها ظنّيات لا تقوى على إثبات القطعيّات، فإنّ القطعيّ لا يثبت إلا بدليل قطعيّ ـ زعموا ـ، وهي مقولة مبتدعة منزوعة التعظيم لحديث رسول الله ﷺ، وتحجيم جائر لحجية السُّنَّة وتشريعها، فأثمرت إنكار جملة من العقائد الغيبية، كانشقاق القمر وعذاب القبر ونعيمه وإثبات الصراط والحوض والشفاعة ورؤية الله في الآخرة[٢]، فضلًا عن جملة من مسائل الفروع المعارضة ـ في

(١) وهي كثيرة، لعل من أشهرها: الشيعة والقرآن: الشيخ إحسان إلهي ظهير، أصول مذهب الشيعة: د. ناصر القفاري، الشيعة الاثني عشرية ومنهجهم في تفسير القرآن الكريم: د. محمد محمد العسال، وغيرها.

(٢) يرى أبو الهذيل أن الحجة لا تقوم فيما غاب عن الحواس من آيات الأنبياء وفيما سواها إلا بخبر عشرين، فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر!! انظر: فضل الاعتزال (١٣٧).

زعمهم ـ لمقتضى العقل ودلالته، مثل: غسل يدي القائم من نومه، وغمس الذباب الساقط في الإناء[١]، حتى سرى أثر هذا القول لدى بعض الأصوليين من غير المعتزلة!!

فكان لزامًا على منهج السلف القائم على تعظيم النصوص الشرعية التصدّي لهذا المذهب بالإبطال وكشف زيفه، وهو ما حمل أئمة الحديث على إفراد أبواب في إثبات الاحتجاج بأخبار الآحاد في الشريعة جملة وفي العقائد خاصة، كما فعل الإمام البخاري في صحيحه في كتاب أخبار الآحاد، ثم أعقبه بكتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، وكما صنع الإمام الشافعي في «الرسالة» لما عقد لذلك بابًا انتصر فيه للسُّنَّة متى ثبتت صحتها، ومثله ابن القيم في سعة ما أورده في «الصواعق المرسلة»، من تتابع الصحابة والتابعين على قبول خبر الواحد في إثبات صفات الله ـ وهي من أعظم العقائد ـ، فانعقد بذلك الإجماع على خلاف ما أحدثه المبطلون!

قال الحافظ ابن عبد البر: «وعلى ذلك أكثر أهل الفقه والأثر ـ أي: إيجاب العمل بخبر الواحد ـ، وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعًا ودينًا في معتقده، على ذلك جماعة أهل السُّنَّة»[٢].

وقال الإمام ابن حبان في مقدمة صحيحه: «وأن من

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٥٣)، الفرق بين الفرق (ص١٤٥).
(٢) التمهيد (١/ ٨).

تنكّب عن قبول أخبار الآحاد فقد عمد إلى ترك السنن كلها؛ لعدم وجود السنن إلا من رواية الآحاد»[١].

وهو أيضًا ما حمل الأصوليّين على تخصيص فصول من كتاب السُّنَّة في مباحث الأدلّة المتفق عليها، للحديث عن حجية خبر الآحاد، والانتصار لذلك، وردّ شُبه المعتزلة بالمنقول والمعقول، في تجلية واضحة للحق الذي يكتنف تعظيم السُّنَّة والاحتجاج بها، ودفع صريح لبطلان ذلك التقعيد الفاسد المتضمن إقصاء السُّنَّة الصحيحة عن العمل والاحتجاج.

حتى أصبحت كثير من هذه الفصول في كتاب السُّنَّة في مصنفات أصول الفقه مرجعًا لهذه المسألة؛ من وفرة ما ساقه الأصوليون في إقامة الأدلة وتفنيد الشبه ودفع الإشكالات، ثم كانت جملة من البحوث المعاصرة التي استوعبت النقول والردود إكمالًا لتلك الجهود وتتميمًا لها[٢].

٤ ـ مذاهب المعطِّلة ونُفاة الصفات الإلٰهية من جهمية ومعتزلة وغيرهم، سواء كان تعطيلًا ونفيًا مطلقًا للصفات، أو بعضها دون بعض، فإنها قائمة على تعطيل النصوص الشرعية

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: المقدمة.

(٢) وهي عديدة، مثل: أخبار الآحاد في الحديث النبوي: د. عبد الله الجبرين، حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام: عبد الله الشريف، خبر الواحد وحجيته: أحمد الشنقيطي، حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام: فرحانة شوينة.

عن دلالاتها الظاهرة في إثبات الصفات الإلٰهية أو تحريفها، وكلاهما بمعزلٍ عن تعظيم النصوص الشرعية.

فجاء مذهب السلف صريحًا في بناء عقيدة الأسماء والصفات على منهج تعظيم النصوص الشرعية، بإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسوله ﷺ في سُنَّته من غير تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تكييف.

وهذه المسألة فرع عن المسألة السابقة، فإن إثبات صفات الله تعالى من مسائل العقيدة التي نازع أهل الأهواء في الاعتماد على إثباتها بأحاديث الآحاد، لكنها لما كانت أعظم أبواب العقيدة، لاتصالها بأول أركان الإيمان وأعظمها ـ وهو الإيمان بالله ـ، فإن النزاع فيها استقل بمصنفات وأبواب أخص من مسألة إثبات العقائد جملة بأحاديث الآحاد.

وتقرّرت قواعد عقائد السلف في باب الأسماء والصفات على هذا المنهج القائم في صلبه على تعظيم النص الشرعي، وتواترت المصنفات المفردة والأبواب المضمّنة في التصانيف الموسّعة في هذا التقرير والردّ على ما يخالفه، تعظيمًا للنص الشرعي ونصرةً له ورعاية لحرمته.

ومن ذلكم: المصنفات المسندة: كالتوحيد للإمام ابن خزيمة، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للحافظ اللالكائي، والرد على الجهمية للإمام الدارمي، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني، ونحو ذلك، وأما جمهرة رسائل شيخ

الإسلام ابن تيمية فإنها في هذا الباب؛ إثباتًا لمنهج السلف وتقريرًا لأصل التعظيم لنصوص الشريعة في الإيمان بها والتسليم بمقتضاها، حيث عاش صراعًا فكريًا شديدًا تصدّى فيه لإرساء تلك الأصول، وكذلك تلميذه ابن القيم في عدد من مؤلفاته، رحم الله الجميع.



المبحث الرابع

فهم النص الشرعي

يُعدّ فهم النص الشرعي تمامَ الفهمِ، والعنايةُ به غايةَ العناية من أجلى معالم التعظيم للنص الشرعي؛ وذلك أن النص الشرعي هو خطاب الشارع للمكلّفين، المشتمل على أحكامهم وما به تَعلُّق مصالحهم وخيرُ أمرِهم في العاجل والآجل، وهذا متوقِّفٌ على فهمِ وإدراكِ مُرادِه على النحو الأكمل، فمن رام الامتثال للنص توجّب عليه العناية التامة بفهمه، فإنه كلّما كان قاصدُ الامتثالِ أكثرَ فهمًا وإدراكًا للمراد كان أصدق امتثالًا وأقرب لإصابة الحق وتحقيق الطاعة، وبناءُ ذلك على قدْرِ التعظيم المستقر في القلوب لنصوص الشريعة، فإنه وقود الفهم والإدراك، وعلى قدر التعظيم تكون العناية بالاستغراق في الفهم واستفراغ الوسع في بلوغ المراد.

وقد أدرك سلفنا الكرام هذه الحقيقة، فكانوا شديدي العناية بفهم النصوص الشرعية والغوص في أعماق معانيها وإحكام دلالاتها والوقوف على حِكَمها وأسرارها، يقودهم في ذلك تعظيمهم للنصوص الشرعية وإجلالهم لمكانتها، واستشعارهم أنها خطاب مولاهم لهم، المستحقّ تمام التعظيم

والاحترام والتقدير، وتنزيله منزلته من العناية بمراده ليتحقق الامتثال له.

وقد صحّ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه، حتى تعرفه[(١)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إلٰه إلا هو ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أُنزلت، ولا أُنزلت آية في كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلمُ أحدًا أعلم منّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه!»[(٢)].

وقال عمر رضي الله عنه: «إني لا أدع بعدي شيئًا أهمّ عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيءٍ ما راجعتُه في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه»[(٣)].

وهذا المَعلم من معالم التعظيم للنص الشرعي لدى السلف تندرج فيه كل جهودهم العلمية المرويّة والمصنّفة في فهم الكتاب والسُّنَّة، والتي أثمرت ثلاثة من علوم الشريعة الجليلة ذات الفروع الواسعة وهي: تفسير القرآن، وشرح الحديث، وأصول الفقه، وفي كلٍّ منها عظيمُ بذلٍ للسلف، وجهدٌ بالغٌ في فهم النّص الشرعي، بيانه فيما يلي:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من سمع شيئًا فراجعه حتى يعرفه رقم (١٠٣). أخرجه مسلم: كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة رقم (١٦١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القرّاء من أصحاب رسول الله ﷺ رقم (٥٠٠٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة رقم (١٦١٧).

١ ـ تفسير القرآن الكريم:

ليس شيء من العلوم بُذلت فيه الجهود وأُفنيت فيه الأعمار مثل تفسير كتاب الله الكريم، ولذلك فليس من الممكن إحصاء ما كُتب وما رُوي من تفسير القرآن الكريم، سواء كان تفسيرًا بالمأثور أو تفسيرًا بالرأي، فكلاهما كان للسلف فيه قدم السبق وإرساء قواعده، المطوّل منها والموجز المختصَر، وتعدّدت جهودهم في تفسير كتاب الله وتنوّعت أنحاؤها، فمن ذلك:

ـ **تفسير القرآن كاملًا**: والعناية بفهم القرآن على هذا النحو كانت مبكرة جدًّا، فقد روى مجاهد أنه عرض على ابن عباس رضي الله عنهما القرآن كاملًا ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، قال: أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها![١].

وعن ابن أبي مليكة قال: رأيتُ مجاهدًا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله[٢].

كما أن مصنّفات التفسير التي تُعنى بكامل القرآن ذات وفرة، كتفسير ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري، وكتفسير ابن عطية والبغوي وابن كثير وابن الجوزي وغيرهم كثير.

---

(١) أخرجه الطبري في مقدمة تفسيره (١/ ٨٥).
(٢) المصدر السابق.

ومن التفسير بالمأثور صنيع أئمة الحديث، بتخصيص أبواب في مصنفاتهم لرواية ما يُنقل عن النبي ﷺ من التفسير، كما فعل البخاري في صحيحه والترمذي في جامعه.

- **غريب القرآن الكريم**: وهذا النحو من فهم كتاب الله مقتصر على الغريب من ألفاظه، والعناية به روايةً وتصنيفًا دليل واضح على تمام عناية السلف بفهم القرآن الكريم، ومن ذلك كتب: معاني القرآن للأخفش، ومثله للفرّاء وللزجّاج، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني على نحو أوسع من الغريب.

- **أسباب النزول**: ومع أنها يردُ ذكرها تبعًا في تفسير الآيات والسُّور، إلا أنها أُفردت بالتصنيف؛ مزيدًا من الاهتمام بها والعناية بفهم كتاب الله، كما في «أسباب النزول» لعلي بن المديني وللواحدي النيسابوري، و«العُجاب» للحافظ ابن حجر، و«لُباب النقول» للسيوطي.

- **الوجوه والنظائر**: وهذا اللون الفريد يعمد إلى حصر الألفاظ المتناظرة في كتاب الله ذات الأوجه المتعددة في معانيها، كلفظ «النكاح» يردُ بمعنى العقد وبمعنى الوطء، وكلفظ «الأمّة» بمعنى الجماعة والزمن والملّة وغيرها، ومن مصنّفاته: كتاب ابن الجوزي: «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر»، ومن قبله كتاب «الأشباه والنظائر» لمقاتل بن سليمان البلخي.

وهو منحىً غاية في اللطف في فهم كتاب الله الكريم،

ودقّة في الوقوف على مواضع الاتفاق والافتراق بين الألفاظ ودلالاتها في كلام الله سبحانه.

ومن لطائف تراجم الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التفسير من سورة النساء قوله: «باب ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣]، وقال معمر: موالي: أولياء ورثة، عقدت أيمانكم: هو مولى اليمين، وهو الحليف، والمولى أيضًا: ابن العمّ، والمولى: المنعم المعتِق، والمولى: المعتَق، والمولى: المليك، والمولى: مولىً في الدين».

- **أحكام القرآن**: وهو تفسير خاصّ بآيات الأحكام الفقهية من كتاب الله، لكنه عميق التناول دقيق الغوص على معانيها ودلالاتها، ذو توظيف بديع لعلوم الآلة من نحو وبلاغة وأصول تفسير وأصول فقه ونحوها، لبلوغ الغاية في فهم الآية واستنباط حكمها.

ومصنّفات أحكام القرآن منحىً عجيب من مناحي فهم القرآن لدى السلف، ينبيك عنها ما سطّرته أقلامهم فيها من بدائع الفوائد ودُرر النفائس، يمتدّ فيها النَفَس إلى عشرات المسائل في الآية الواحدة!(١).

وظهرت مصنّفات أحكام القرآن في مختلف المذاهب،

---

(١) كما فعل ابن العربي في أحكام القرآن، في تفسير آية الدّين من سورة البقرة، فقد أوصل مسائلها إلى (٥٢) مسألة.

ينزع فيها مصنّفوها في الترجيح إلى مذاهبهم الفقهية، كـ«أحكام القرآن» للجصّاص والطحاوي الحنفييّن، و«أحكام القرآن» لابن العربي وابن الفرس المالكيين، و«أحكام القرآن» للشافعي بجمع الإمام البيهقي، وهكذا.

إنّ هذا التفنّن البديع في تواليف فهم كتاب الله الكريم، على أنحاء متفاوتة وجهات مختلفة، إنما قام على رصيد ضخم عظيم من تعظيم كتاب الله في أفئدة السلف، فطفقت تجهد في الانكباب على فهمه وتفحّصه وشدة العناية بإدراك معناه.

٢ ـ شرح الحديث:

بعد أن نشطت حركة تدوين السُّنَّة النبوية وجمعها وتصنيفها، بدأت حركة علمية جليلة لشرح أحاديث تلك المصنّفات، وهي على اختلاف أنحائها مَعلمٌ من معالم عناية السلف بفهم النص الشرعي والإحاطة بمعناه وإدراك مراده، وصولًا إلى الامتثال والعمل به.

ومن جهود السلف في فهم السُّنَّة وشرح أحاديثها:

ـ **تبويب أئمة الحديث وصناعة التراجم الفقهية لأحاديث الأبواب في مصنّفاتهم**، فإنها فقه دقيق وفهم عميق لأحاديث الباب، كتراجم مالك في موطّئه، والبخاري في صحيحه، وأبي داود في سننه، والترمذي في جامعه، وغيرهم.

ـ **غريب الحديث**: على منهاج غريب القرآن، في تتبع

ألفاظ الحديث النبوي التي تكتنفها غرابة، فتفرد بمؤلفات تُعنَى بجمعها وبيان الروايات التي سيقت فيها، ثم بيان معانيها مشفوعة بشواهد من شعر العرب وأمثالها، كما في غريب الحديث لابن قتيبة والخطابي، والفائق للزمخشري، والنهاية لابن الأثير، وهو كاسمه: النهاية في هذا الفن من غريب الحديث والأثر.

ـ **صناعة الشروح لدواوين السُّنَّة**، وهي أوسع ميدان بذل فيه السلف واسع جهودهم في فهم سُنَّة المصطفى ﷺ، والوقوف على دلالة ألفاظه وأفعاله وتقريراته عليه الصلاة والسلام.

فشروح صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ومن قبلها شروح موطأ مالك، كلها غدت مستودع معاني نصوص السُّنَّة النبوية وفوائدها وأحكامها ودُرر نفائسها.

ـ **شروح أحاديث الأحكام**، على غرار تفسير آيات الأحكام في القرآن الكريم، فإن مجاميع أحاديث الأحكام كـ«عمدة الأحكام»، و«منتقى الأخبار»، و«بلوغ المرام» وغيرها، قد حظيت بشروح نفيسة، تتناول بعمق بالغ ودقة عظيمة معانيها وأحكامها المستنبطة منها: في توظيف رائع لعلوم الآلة ـ كما هو الشأن في تفسير أحكام القرآن ـ، وهي كذلك تناولتها عناية فقهاء المذاهب في بيان أوجه استنباط الأحكام وفق ما تقرر في فقه المذاهب على اختلافها.

٣ ـ أصول الفقه:

وهو علم قائم على محورين اثنين: الأدلة الشرعية، ودلالاتها، ومحور دلالات الألفاظ هو المقصود بيانه هنا في إظهار جهد السلف البالغ في فهم النّص الشرعي.

فأبواب دلالات الألفاظ في علم أصول الفقه المشتملة على فصول: الأمر والنهي، والعام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمجمَل والمبيّن وغيرها، كلها قائمة على دقيق الفهم وعميقه للنصوص الشرعية.

وأُرسِيَت قواعدُ في غاية الإحكام لذلك الفهم، ففي الأمر مثلًا: تُحصر صيغه، ومعانيه، ثم دلالاته المختلفة: عند الإطلاق، وعقب الحظر، وإذا عُلِّق على شرط، وبعد السؤال والاستئذان، تختلف فيها الدلالة في كل موضع عن الآخر، وهكذا!

ولن يقضي الناظر عجبًا.. كيف صاغ السلف مثل تلك الفصول المتناهية في الدقّة والإحكام من أصول الفقه، بدءًا بالإمام الشافعي في رسالته، وانتهاءً بالمطوّلات الواسعة التي تحقّق وتدقّق في دلالات الألفاظ: الجملة في سياقها، والكلمة في جملتها، والحرف في كلمته، بل إلى استنباط منطوق النص ومفهومه، الموافق والمخالف.. بحيث لا تكاد تبقى مساحة للنص فيها اتساع لاحتمال معنى إلا أوسعوه بحثًا، وما باب حروف المعاني ببعيد، عندما تبلغ العناية والدقة في الفهم

والنظر إلى الحرف (الواو والفاء والباء... إلخ)، وتمييز دلالته على المعنى المراد، وأثر ذلك في الحكم المستنبط من النص؛ فإننا أمام صورة من صور العظَمة لتعظيم نصوص الشريعة فهمًا وإدراكًا.

كل ذلك معالم جلية بارزة في تاريخ السلف الكرام، تدلّ على تعظيمهم العظيم للنصوص الشرعية، تعظيمًا حملهم على بلوغ الغاية في فهمه وإدراك معانيه ومعرفة مراده، تحقيقًا لامتثالٍ أتمّ وعبوديةٍ أصدق!

تلك إلماحة وجيزة جدًّا لمظهر من مظاهر تعظيم النصوص الشرعية لدى السلف، ومَعلَم من معالمه العظام، التي أشرقت بها حياتهم، فانتصبت للأجيال اللاحقة منهاجًا يسلك بالأمة درب التعظيم المنشود لنصوص الشريعة الغرّاء.



المبحث الخامس

خدمة النّص الشرعي

من معالم تعظيم النص الشرعي لدى السلف: تفانيهم في خدمته خدمةً علميةً، من كل وجه يقوم به بين المكلّفين في الأمّة، ويشمل ذلك حفظه، ونشره، وتيسير تناوله، وتقريب أخذه، فقامت علوم مستقلّة برأسها في الأمّة، لم يكن لقيامها من غرض سوى خدمة النّص الشرعي بالتقسيم والتبويب والتفريع، فتجرَّد المصنَّفات والدواوين، ويدرسها طلبة العلم، ويحفظونها ويرتحلون في طلبها وتحصيلها، خدمةً للكتاب والسُّنَّة وتعظيمًا لشأنهما.

وهي التي اصطُلح على تسميتها بكلٍّ من: علوم القرآن، وعلوم الحديث، وفي كلٍّ منهما من فنون العلم وتفاريعه ما يخدم النّص الشرعي بمختلف الوجوه.

فأمّا علوم القرآن: فهي لون فريد من الغوص على علومه: مكّيّه ومدنيّه، وأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، ووقفه وابتدائه، وتجويده ورسمه وضبطه، وفواصله وعدِّ آيِهِ، وقراءاته وتوجيهها، وإعرابه ونحوه وبلاغته، ومُحكَمِه

ومتشابهه، وأسلوبه وإعجازه، بل تناولت جزيئات دقيقة منه، كمعرفة أول ما نزل وآخره، وترتيب نزوله، وما نزل صيفًا وما نزل شتاءً، وما نزل ليلًا وما نزل نهارًا...، ونحو ذلك من علوم القرآن التي حوتها مجاميع من مصنفات السلف، كـ«فنون الأفنان في علوم القرآن» لابن الجوزي، و«جمال القرّاء وكمال الإقراء» لعَلَم الدين السخاوي، و«البرهان» للزركشي، ثم «الإتقان» للسيوطي، الذي بلغ فيه ثمانين نوعًا من علوم القرآن على سبيل الدمج والإجمال، ولو فصّلها باعتبار ما أدمجها فيه لزاد على الثلاثمائة!

ورغم هذا التفنّن؛ فإن كثيرًا من تلك العلوم أفردت بتصانيف مستقلة، كالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وغريب القرآن، بل منها ما أضحَى عِلمًا ذا تآليف تفوق الحصر، كعلم القراءات، وعلم الرسم والضبط، والتجويد، والوقف والابتداء.

وقد كانت هذه العناية بتدوين علوم القرآن على سبيل التوسع خدمةً له منذ وقت مبكّر، فكتاب «البرهان في علوم القرآن» لعلي بن إبراهيم الحوفي (٣٣٠هـ)، واقع في ثلاثين مجلّدة، والموجود منها خمسة عشر مجلدًا![١].

(١) انظر: مناهل العرفان (١/ ٣٩).

فتعدُّد هذه العلوم الخادمة لكتاب الله، ثم تعدد مصنفاتها مفردة ومجموعة، دليل متّسع على عظيم عناية السلف بخدمة كتاب الله الكريم، لا يحملهم على ذلك سوى تعظيمٍ وَقَر في قلوبهم لكلام ربهم الكبير المتعال.

وأما علوم الحديث: فباب عظيم من خدمة السُّنَّة النبوية، بدءًا بتدوينها وحفظها وروايتها، وانتهاءً بتمييز ثابتها من مردودها.

ونظرًا لانقسام السُّنَّة إلى مقبول ومردود؛ فقد تنوّعت علومها بما يخدم هذا القصد العظيم، الذي يمرّ بمراحل عدّة، من التحقّق من اتصال السند، وعدالة الرواة، وضبط حفظهم، وانتفاء الشذوذ والعلل.

فتاريخ الرواة ومعرفة أحوالهم حفظًا وديانة (الضبط والعدالة) أو ما سُمي بعلم الرجال أو الجرح والتعديل أضحى علمًا لا ساحل لبحره، تفنى فيه الأعمار، وتفرّد بالإمامة فيه آحاد الأئمة المحدّثين بين الحين والحين!

وجمع طرق الأحاديث واستقصاء أسانيدها لكشف مواطن الخلل والوقوف على العلل وإثبات المحفوظ من الشاذ؛ هو الآخر علمٌ غامض دقيق خفي، لا يكاد يحسنه إلا الواحد بعد الواحد من أفذاذ الحفّاظ وجهابذة النقّاد!

وأما التدوين للسُنَّة وجمعها والتفنّن في تصنيفها إلى جوامع وسنن ومسانيد وموّطآت ومستدركات وزوائد. . . ، فهي عبقرية فذّة في خدمة السُّنَّة بحفظها وجمعها.

ومن ثمّ كانت المصطلحات المتداوَلة لدى المحدّثين في هذا الفنّ بحاجة إلى جمع وبيان، فنشأت كتب أصول الحديث أو المصطلح أو علوم الحديث، وأُفرِدَت بالتصنيف، حتى بلغ بها ابن الصلاح في كتابه خمسةً وستين نوعًا، قائلًا: «وليس بآخر الممكن في ذلك، فإنه قابل للتنويع إلى ما لا يُحصَى؛ إذ لا تحصى أحوال الرواة وصفاتهم، ولا أحوال متون الحديث وصفاتها، وما من حالة منها ولا صِفَةٍ إلا وهي بصدد أن تُفرَد بالذِّكر وأهلُها، ، فإذا هي نوع على حياله!»[1].

وما جمعه ابن الصلاح في كتابه من علوم الحديث إنما هو جمع لشتات ما صنّفه أئمة الحديث قبله، كالحاكم في «معرفة علوم الحديث»، والخطيب البغدادي في «الكفاية»، بل لا يكاد يخلو نوع من تلك الأنواع من تصنيف مستقل فيه للخطيب البغدادي!!

فهذه العلوم التي شيَّد صروحَها السلفُ، إنما كانت خدمة لسُنَّة رسول الله ﷺ تعظيمًا لها وإجلالًا.

(١) علوم الحديث لابن الصلاح (ص١١).

وهي مع ما سبق بيانه من جهودهم في علوم القرآن مَعلَمٌ من معالم تعظيمهم للنص الشرعي من خلال خدمته، فرحمهم الله، وسلك بنا سبيلهم.



الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

فقد يسّر الله بكرمه وفضله إتمام هذا البحث الموسوم بـ«تعظيم النص الشرعي.. مكانته ومعالمه»، العظيم في موضوعه، المتّسع في محتواه، وهو قائم على محورين اثنين:

أحدهما: مكانة تعظيم النص الشرعي في الشريعة، وموضعه من كلياتها ومقاصدها العظام.

والآخر: معالم هذا التعظيم التي تحققه، وأمثلة ذلك وتطبيقاته لدى سلف الأمة الكرام.

وموجز ما اشتمل عليه البحث ما يلي:

١ ـ أن مكانة تعظيم النص الشرعي في الشريعة تبرز من خلال تحقيقه لمقصدين ومطالب ثلاثة، أما المقصدان فهما: مقصد الشريعة من التنزيل، ومقصد الشريعة من التكليف، وأما المطالب فهي: تعظيم الله ﷻ، وتعظيم حرمات الله تعالى، وتعظيم شعائر الله ﷻ.

٢ ـ مقصد الشريعة من التنزيل: تعظيمه واحترامه ومهابته، وقد تضافرت على ذلك الأدلة الشرعية، وتعظيم النص الشرعي محقق لهذا المقصد من أكثر من وجه.

٣ ـ مقصد الشريعة من التكليف: الطواعية والامتثال والانقياد لأحكام الشريعة بصدق العبودية والوقوف عند مقتضى النص الشرعي، فتعظيمه محقق لهذا المقصد.

٤ ـ تعظيم الله ﷻ مطلب شرعي جليل قصدًا وتبعًا، وهو قِوام الدين وصلب التكليف وركيزة العبودية، وتعظيم النص الشرعي أحد وسائل تحقيقه.

٥ ـ تعظيم حرمات الله مطلب حثّت عليه الشريعة، والحرمات في معناها العام تتناول النص الشرعي؛ لأنه مما يثبت له الاحترام والمهابة، فتعظيمه تعظيم لحرمات الله.

٦ ـ تعظيم شعائر الله مطلب عظيم يحقق تقوى القلوب، ودلالة لفظ الشعائر يتناول معالم الدين وأعلامه البارزة، والنص الشرعي أحدها، فيتناوله التعظيم المنشود.

٧ ـ حفلت حياة السلف بشتى صور التعظيم للنص الشرعي، وجماع ذلك معالم خمسة: حفظ النص الشرعي، وتوقيره، ونصرته، وفهمه، وخدمته.

٨ ـ حفظ النص الشرعي معلم من معالم تعظيم النص الشرعي لدى السلف، وهو حفظ سطور وحفظ صدور، وفي

كليهما من بديع الحفظ والإتقان ما يشهد لتعظيم السلف للنص الشرعي.

٩ ـ توقير النص الشرعي بالوقوف عند مقتضاه، وعدم التقدم بين يديه، معلم جليل من معالم تعظيم السلف للنص الشرعي، بل كان منهاج حياة لهم، في صور يُضرب بها المثل وتحيا بها الأجيال.

١٠ ـ نصرة النص الشرعي والذبّ عنه تجاه كل دعوى تنتقصه أو لا تعظمه معلم ثالث من معالم تعظيم السلف للنص الشرعي، حملهم على ردّ ضلالات أهل الأهواء المناقضة لتعظيم النص الشرعي.

١١ ـ فهم النص الشرعي وبذل غاية الجهد في إدراك مراده ومعرفة مقاصده معلم رابع من معالم تعظيم السلف للنص الشرعي، وآية ذلك علوم ثلاثة: تفسير القرآن، وشرح الحديث، وأصول الفقه.

١٢ ـ خدمة النص الشرعي معلم خامس من معالم تعظيم السلف للنص الشرعي، بحفظه وبثّه وتيسير تناوله وتقريب أخذه للأمة، فقامت لذلك علوم القرآن وعلوم الحديث، وصُنفت فيها الدواوين وأُفنيت فيها الأعمار.

هذا ما وفّق الله المنّان بفضله تسطيره ورقمه، على عجالة وإيجاز شديدين، وهو المسؤول وحده أن يقبله وينفع به، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

١ ـ **أحكام القرآن**: الإمام محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق: عبد القادر عطا، ط١، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، اعتنى به: حسان بن عبد المنان، ط. ٢٠٠٤م، بيت الأفكار الدولية، لبنان.

٣ ـ **الإعلام بفوائد عمدة الأحكام**: الإمام عمر بن علي الأنصاري (ابن الملقِّن) (٨٠٤هـ)، تحقيق: عبد العزيز المشيقح، ط١، ١٤٢١هـ، دار العاصمة، الرياض.

٤ ـ **الانتصار للقرآن**: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق: عمر القيام، ط١، ١٤٢٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥ ـ **البداية والنهاية**: الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرون، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦ ـ **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم**: بدر الدين ابن جماعة الشافعي، ط. ١٤٢٢هـ، دار النفائس، الأردن.

٧ ـ **تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»**: الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط١، ١٤٢٤هـ، دار عالم الكتب، بيروت.

٨ ـ **تفسير القرآن العظيم**: الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، ط. بدون، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٩ ـ **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب «تفسير الرازي»**: الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٦٠٦هـ)، ط١، ١٤٢٥هـ، دار الفكر، بيروت.

١٠ ـ **التفسير الميسّر**: إعداد نخبة من العلماء، ط. ١٤٣٠هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

١١ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي (٤٦٣هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط١، ١٣٨٧ ـ ١٤١١هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

١٢ ـ **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان «تفسير السعدي»**: الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمٰن اللويحق، ط١، ١٤٢٤هـ، دار ابن حزم، بيروت.

١٣ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: الإمام يوسف بن عبد البرّ الأندلسي، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار العاصمة، الرياض.

١٤ ـ **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**: الإمام الحافظ أبو عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، ط. بدون، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: الحافظ عز الدين.

١٦ ـ **الرسالة**: الإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. بدون، المكتبة العلمية، بيروت.

١٧ ـ **سنن أبي داود**: الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، تعليق: عزت الدعّاس، وعادل السيد، مصوّرة عن ط. ١٣٩٣هـ، دار الحديث، بيروت.

١٨ ـ **سنن ابن ماجه**: الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. بدون، ١٤١٤هـ، دار الحديث، القاهرة.

١٩ ـ **سير أعلام النبلاء**: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ)، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، ط٩، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٠ ـ **صحيح البخاري**: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، ط١، ١٤٢٥هـ، طبعة دار المعرفة، بيروت.

٢١ ـ **صحيح مسلم**: الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ)، ط١، ١٤٢٥هـ، طبعة دار المعرفة، بيروت.

٢٢ ـ **الفرق بين الفِرق**: عبد القاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. ١٤١١هـ، المكتبة العصرية، مصر.

٢٣ ـ **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز «تفسير ابن عطية»**: الإمام القاضي عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٦هـ)، تحقيق: المجلس العلمي بمكناس، ط. ١٤١٣هـ، توزيع مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢٤ ـ **مدارج السالكين**: الإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، ط. بدون، دار الكتب العلمية.

٢٥ ـ **المدخل إلى علم السنن**: الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عوامة، ط١، ١٤٣٧هـ، دار المنهاج، جدة.

٢٦ ـ **معرفة أنواع علوم الحديث**: الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمٰن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (٦٤٣هـ)، تحقيق: نور الدين عتر، ط٣، ١٤١٨هـ، دار الفكر، بيروت.

٢٧ ـ **معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار**: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق: د. طيار آلتي قولاج، ط١، ١٤١٦هـ، مركز البحوث الإسلامية، استانبول.

٢٨ ـ **مقاصد الشريعة الإسلامية**: العلامة محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، ط١، ١٤٢٠هـ، دار الفجر، دار النفائس، الأردن.

٢٩ ـ **المِلل والنِّحَل**: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ)، تعليق: صلاح الدين الهواري، ط١، ١٩٩٨م، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٣٠ ـ **مناهل العرفان**: محمد عبد العظيم الزرقاني، ط١، دار الشروق، القاهرة.

٣١ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**: الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (٧٩٠هـ)، عناية: إبراهيم رمضان، ط١، ١٤١٥هـ، دار المعرفة، بيروت.

٣٢ ـ **الموطأ**: الإمام مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. ١٣٧٠هـ، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

٣٣ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي، ط. بدون، دار الفكر، سوريا.

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة

الفهرس